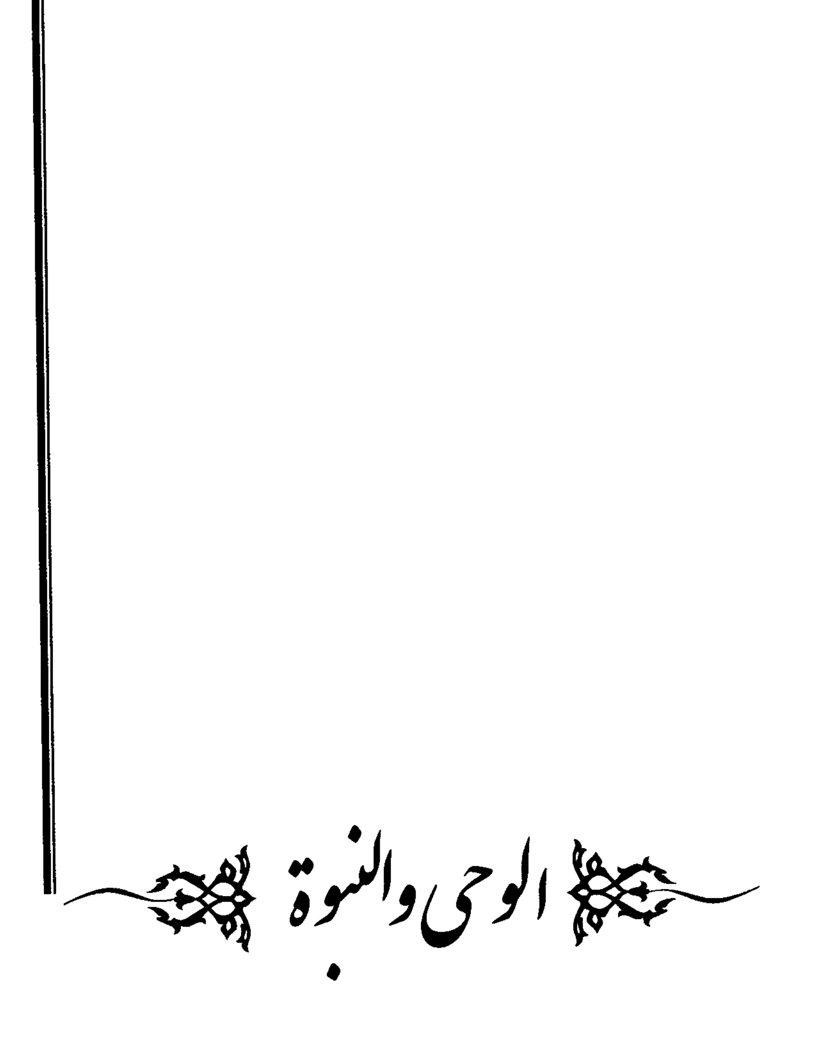

الوحي والنبوة
تأليف
آية الله العلامة الجليل الشيخ عبد الله الجوادي الآملي

بسم الله الرحمن الرحيم

سُبحانَ الَّذي أسرى بعبدِهِ ليلاً مِنَ المسجدِ الحرامِ
إلى المسجدِ الأقصا الَّذي باركنا حولهُ لنُريهُ
مِنْ آياتنا إنَّهُ هُوَ السَّميعُ البصيرُ



الوحي والنبوة

جوادی آملی ، عبدالله - ۱۳۱۲.
الوحی والنبوة / المولف عبدالله الجوادی الآملی ؛
قم :اسراء،۱۳۸۷
۲۹۶ ص.
فهرست نویسی بر اساس اطلاعات فیپا
عربی:
چاپ اول
۱. وحی والهام.۲. نبوت. الف) عنوان.
BP ۲۲۰/ ۹ج ن ۳ ۱۳۸۷/۳
کتابخانه ملی ایران

ISBN: 978-964-8739-24-4

۲۹۷ /۴۳
۱۵۷۰۹۹۸

● اسم الکتاب: .... **الوحی والنبوة**
● المؤلف: .... آیةاللهالشیخ عبدالله الجوادی الآملی(دام ظله العالی)
● الناشر: .... دارالإسراءللنشر
● المطبعة: .... دارالإسراءللنشر
● الطبعة: .... الاول
● تاریخ النشر: .... ۱۳۸۷هـ. ش ـ ۱۴۲۸هـ.ق
● الشابک: ۹۷۸-۹۶۴-۸۷۳۹-۲۴-۴
● الکمیة: .... ۲۰۰۰ نسخة
● السعر: .... ۶۰۰۰۰ ریال

قم المقدسة، بلوارامین،زقاق رقم ۸،رقم الموسسة ۱۳۷

الهاتف: ۶۶۴۱۶۲۱ - ۶۶۴۱۶۲۲ - ۲۹۳۱۱۷۸ الفاکس: ۶۶۴۱۶۲۱

البرید الکترونی: Publish_center@esraco.net

www.esra.ir

المحتويات



كلمة الناشر

إنّ من أكثر أركان الدين أساسيّةً، وأشدّ الأصول العقائديّة الراسخة للإسلام تأثيراً هي قضية النبوّة، والهداية المتواصلة للرسالة، هذه الحقيقة التي لم يزل الجُهّال، من جهة، والمغرضون، من جهة أخرى، يقفون منها موقف العدوّ والخصم، ويسعون جاهدين لطمسها ومحوها من الوجود. بيد أنّ السنّة الإلهيّة العصيّة على التبديل، وناموس التشريع الربوبيّ جاريان ومستمرّان ما بقي الدهر. وإنّه وفقاً لهذه السنّة الإلهية فقد بُعِث الأنبياء، الذين هم سفراء الله ورسل السماء، ليحملوا مشاعل الهداية، ويُنيروا للناس سبيل السعادة، آخذين على عواتقهم هدايةً، بل قيادة، المجتمع البشريّ أجمع. واليوم أيضاً تتحقّق تلك الهداية للبشريّة على أيدي العلماء الذين هم ورثة لأولئك الأنبياء: «العلماء ورثة الأنبياء».[1]

إنّ مِن التجلّيات الأساسية والباطنيّة للرسالة هي حقيقة الوحي، تلك الحقيقة التى بها سلّح الله أنبياءه، بسلاح الهداية، وجهّزهم بجهاز النورانيّة. وهذا الوحي ـ الذي له مظاهر متعدّدة، والذي تنزّل فى أفضل تجلّياته على هيئة قرآنيّة ـ كان ولا يزال غرضاً للتعدّي الفكريّ، والتجاوز النظريّ من قبل البعض ممّن حاكوا

1. الكافي، ج1، ص32.

حوله الأباطيل، سواء من جرّاء جهلهم، أو بدوافع مغرضة؛ فبعض بادروا إلى نفيه بالكامل، وبعض شكّكوا بكيفيّته وأسلوبه، والبعض الآخر نسبوا له التحريف بعد قبوله.

وفي عصرنا الحاضر ـ حيث الرؤية المادّيّة للكون من جهة، والنزعة الدنيويّة والعلمانيّة من جهة أخرى، والاتّجاه العقليّ للبشر من جهة ثالثة، لاسيّما نفي القداسة، وإضفاء الصبغة المادّية على كلّ شيء، ممّا يُعدّ كلّه مظهراً من مظاهر الحضارة العلميّة المعاصرة ـ اتّخذت شرذمة من حَمَلة تلك النزعات الفكريّة، والتوجّهات العقائديّة منحاً آخر في النيل من حريم الوحي، والتشكيك فيه. فبعد ادّعائهم أنّهم يقبلون أصل الوحي، أفتوا ببشريّة البشير له، كي يتسنّى لهم القول إنّ القرآن الكريم، ذلك الكتاب السماويّ والإلهيّ، ليس هو إلاّ كتاباً أرضيّاً وبشريّاً. وبعد بثّ هذا الانحراف الكبير، والاعوجاج الخطير، الذي يشكّل تهديداً جديّاً للدين وللهوية الإسلاميّة، فقد أضفى هؤلاء الصبغة البشريّة على الوحي، ومن ثمّ ذهبوا إلى احتمال وقوع الخطأ والخطيئة فيه، واعتبروه غير مصون من الأخطاء والعثرات النبويّة تحت وطأة المؤثّرات العصريّة والمصريّة، الأمر الذي لن يؤول إلاّ إلى ادّعاء وجود الزُّخرُف في الدين، وتدنّس حريمه بشوائب الجهل والخطأ.

وعلى الرغم من أنّ هذا الطراز الفكريّ المتطرّف، أو الإلحاديّ أحياناً، موغل في تاريخ دنيا العلم والفكر، وإنّ بداياته تعود إلى عصر النهضة، إلاّ أنّه عاد وانبعث من جديد في هذه الحقبة الحسّاسة من التاريخ. وإذا كان قد وقف عند

أوائل ظهوره ضدّ الكنيسة المسيحيّة، فهو اليوم يقف في مواجهة الإسلام المحمّديّ.

إنّ الدين المحمديّ وشريعته السماويّة السمحاء، وإن كانا في غاية الرسوخ والمَنَعة، إلاّ أنّه من البديهيّ أن يقع الأشخاص ـ الذين لم يسلّحوا أنفسهم بسلاح العلم والمعرفة، وليس لهم اطّلاع كاف على مغزى العبارات الرنّانة والظواهر الخدّاعة للكلمات ـ فريسة الكلام الأجوف، والدعاوى المفتقرة إلى الدليل والبرهان، الأمر الذي يؤدّي بالنتيجة إلى تزعزع وتزلزل المعرفة والمعتقدات.

إنّ هذا الكتاب الشريف: «**الوحي والنبوّة**» الذي بين أيديكم هو من تأليف سماحة الأستاذ العلاّمة آية الله جوادي آملي، الذي صنّفه ليكون مقدّمة لسلسلةٍ من المباحث المدوّنة تحت عنوان «**موسوعة كلمات الرسول الأعظم(ص)**».

ومن خلال تبيينه لأسس النبوّة والرسالة، ومنزلة النبيّ أو الرسول، يستكشف هذا الكتاب أعماق حقيقة الوحي، ويسبُرها سبراً مميّزاً، ليتسنّى له ـ بعد توضيحه لمباحث الوحي العامّة ـ تبيين الحقيقة الأكمل للوحي، المتمثّلة بالقرآن الكريم، في كافّة مراحل قوس النزول (بدءاً من منطقة «العليّ الحكيم»، وصولاً إلى نطاق «العربيّ المُبين»)، ويقدّم الإجابات الشافية على ما استجدّ من شبهات وتساؤلات في هذا المضمار، ويستخدم أداتَي العقل والنقل لإنهاء النزاع والخلاف القائمين حول الفهم الصحيح لهذا الموضوع.

ونحن من جانبنا نوصي الأساتذة الأكارم، والنُخَب المحترمين في حقل العلوم الإنسانيّة والدينيّة، سواء في الحوزات العلميّة أو الجامعات الأكاديميّة، بمطالعة هذا

الكتاب الفاخر والبحث فيه، والتحقيق حوله، إذ أنّه يُعدّ من أحدث وأعمق الدراسات المقدّمة في مجال الإدراك الفلسفيّ، والعرفانيّ، والقرآنيّ لحقيقة الوحي، لاسيّما القرآن المجيد، كي تُتاح لهم ـ بعد وقوفهم على أرضيّة صلبة من الفهم الصحيح، والإيمان الراسخ ـ فرصة الردّ على الشبهات والإشكالات التي تضع الأساس للاعوجاج الفكريّ، والانحراف الذهنيّ، وتمهّد الأرضيّة لتزلزل المعرفة، ووهن العقيدة.

إنّ دار الإسراء للنشر ترى أنّ من جملة افتخاراتها ومن دواعي سعادتها وسرورها أن تضع بين أيدي العلماء والأحرار هذا الأثر العميق والفريد من نوعه في ميدان المعرفة الدينيّة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـنِ الرَّحِيمِ
وَ إِيَّاهُ نَسْتَعِينُ

الحمد للّه المتجلّي لخلقه بخلقه، والصلاة والسلام علىٰ جميع الأنبياء والمرسلين سيّما خاتمهم محمّد بن عبدالله(صلّى الله عليه وآله وسلّم) وعلى أهل بيته الذين أذهب الله عنهم الرجس، وطهّرهم تطهيراً، سيّما خاتمهم المهديّ الموجود الموعود عجّل الله تعالى فرجه، بهم نتولّىٰ، ومن أعدائهم نتبرّء إلى الله.

أمّا بعد: فيقول العبد المفتاق إلى ربّه الجواد، «عبدالله الجواديّ الطبريّ الآملي»: هذه وجيزة حول نبوّة سيّد الأنبياء(صلّى الله عليه وآله وسلّم) لتكون مقدّمة لـ «موسوعة كلمات الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم)» التي جمعها عصابة من صحابة العلم والوعي، ضاعف الله أجرهم في الدنيا والعقبى، والمرجوّ أن يتقبّلها الله بقبول حَسَن، ويُهْدِيَ ثوابَها إلى مَن دنى فتدلّى، فكان قاب قوسين أو أدنى، والبحث في صلات:

الصلة الأُولى

حول أصل النبوّة

إنّ النّبوة ـ وكذا الرسالة ـ منصب إلهيّ لا ينال بالسعي، بل الله سبحانه يُؤتيها من يشاء؛ لأنّه تعالى أعلم حيث يجعل رسالته؛ لأنّ لها شرائط خاصّة لا يعلمها إلاّ هو تعالى، فليس في وُسْع أحَد أنْ يصل إليها بالعلم الصائب، والعمل الصالح، وإن كان ذلك من أوصاف النبيّ(صلّى الله عليه وآله وسلّم)، كما أنّه ليس في قدرة الجمهور أن ينصبوا لها شخصاً معيّناً، ويُؤتونها إيّاه، إذ النَصْب المختصّ بالله سبحانه، لا يتيسّر لغيره أبَداً، كما أنّه ليس لهم أن يتوقّوا وينتظروا أنّ الله سبحانه يؤْتيها رجلاً عظيماً على زعمهم:... ﴿عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[1]، وكما أنّه ليس للنبيّ(صلّى الله عليه وآله وسلّم) أن ينصب نبيّاً آخر، نعم له أن يسئلَ الله سبحانه أن يجعل شخصاً معيّناً نبيّاً كما سأل موسى(عليه السلام) ربّه أن يجعل أخاه وزيراً له، وشريكاً في أمره ـ أي أمر النبوّة ـ، فأجاب الله سبحانه دعوته، وقال: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَى﴾[2].

وهكذا الإمامة الخاصّة المعتبرة فيها العصمة؛ لأنّها كالنبوّة والرسالة منصب خاصّ إلهيّ، لا يُؤتيها إلاّ الله الذي بيده عقدة هذه المناصب الهامّة، التي لايحوم حومها الكسب والإختيار؛ ولذا قال الله سبحانه لإبراهيم(عليه السلام) الذي

---

١ ـ الزخرف: ٣١/٤٣.

٢ ـ طه: ٣٦/٢٠.

جعله للناس إماماً حيث تمنّاها لذرّيّته: ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّـٰلِمِينَ﴾[1]، فأفاد أنّ الإمامة عهد إلهيّ أوّلاً، وزمامه بيد الله سبحانه ثانياً، وصيرورة شخص إماماً بنيل الإمامة إيّاه لا بنيل الشخص إيّاها ثالثاً، فليست أمراً حاصلاً بالسعي، حتّى ينالها الساعي الكاسب، ولا ينال هذا العهد الإلهي من كان ظالماً رابعاً، وأنّ الظلم السالف مانع من أن يناله العهدُ الإلهي وإن صار عادلاً بالتوبة خامساً، وأنّ الظالم بالفعل والمتلبّس به دون أن يناله العهد الإلهي سادساً، وأنّ الذي يسير ظالماً في البقاء وإن كان عادلاً في الحدوث لايليق بذلك العهد سابعاً، وأنّ الله الذي أعلم حيث يجعل إمامته لا يجعله إماماً لعلمه سبحانه بالغيب ثامناً، وما إلى ذلك من الفروع المستنبطة من تلك الآيات التي أُشير إلى بعضها، ويُشار إلى بعضها الآخر في ثنايا البحث.

فتبيّن أنّ النبوّة ما هي إجمالاً، وأنّها منصب إلهيّ لا يناله أحد بالسعي، وأنّ الله سبحانه يُؤتيها من يشاء من عباده، وأنّ مشيئته حسب حكمته؛ لأنّه أعلم حيث يجعل رسالته، وأنّ الله سبحانه هو الذي يَقْسِم معاش الناس، سيّما المعيشة الروحيّة التي منها النبوّة، وأنّ الله سبحانه يَجْتَبي من رسله من يشاء، وأنّ الله يَمنّ على من يشاء من عباده، وإن كانوا بشراً مثلنا إلاّ أنّ الله يبعثهم، ويمنّ عليهم، ويرسلهم بعد أن نصبهم لذلك.

وأنّ شجرة النبوّة لا يَغْرِسها إلاّ الله، ولا يُنْبِتها إلاّ الله، ولا يُثمرها إلاّ هو، وأنّ الذي ينسلخ من آياته تعالى لا يبعثه الله نبيّاً ولا رسولاً ولا إماماً، ولا يهبه

---

١ ـ البقرة: ١٢٤/٢.

شيئاً من المناصب الربّانيّة، وإنْ يُؤتيه نزراً من الآيات، وبِضْعَة منها، وأنّ الحكـيم المتعالـي أجلّ من أن تُبَدّل حكمتَه الوسائلُ، وأنّ النبوّة مُنّة ـ أي نعمة عُظمىٰ ـــ ، لا يمنّ الله سبحانه بها إلاّ من اعتصم من الخطأ والخطيئة علماً وعملاً، ومـا إلى ذلك من الثمار الطيّبة التـي تثمرهـا شـجرة طـوبى المعبّـر عنـها بالـصلة الأُولى المعنونة بها.

الصلة الثانية

فــي نبوّة الإنسان

حيث إنّ النبوّة عبارة عن تلقّي الوحي النبوي، واستماعه من الله سبحانه بلا وسيط أو بوساطة، فهي مقام خاصّ مرتبط بالله وأحكامه الغَيبيّة، فيلزم البحث عن إمكان نيلها الإنسان أو اختصاص ذلك بالمَلَك، وأنّ الإنسان يمتنع أن يصير نبيّاً ورسولاً.

إنّ مَزْعَمة الذين اتّخذوا من دون الله أوثاناً أرباباً هو امتناع ذلك، وأنّ النبوّة والرسالة تختصّ بالمَلَك، هذا هو الداء العُضال للذين يعبدون ما ينحتون، حيث قالوا: ﴿مَا نَرَكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾[1]، ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾[2]، ﴿وَ مَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَي إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً﴾[3]، ﴿وَ لَوْ شَآءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِي ءَابَآئِنَا الأَوَّلِينَ﴾[4]، ﴿وَ لَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَـٰسِرُونَ﴾[5]،

---

١ ـ هود: ٢٧/١١.

٢ ـ إبراهيم: ١٠/١٤.

٣ ـ الإسراء: ٩٤/١٧.

٤ ـ المؤمنون: ٢٤/٢٣.

٥ ـ المؤمنون: ٣٤/٢٣.

﴿لَوْلاَ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾[1]، ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾[2]، ﴿إِنْ هَـذَآ إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾[3].

وعُصارة هذا الوهم الفائِل هو: أنّ الإنسانيّة لا تلائم النبوّة؛ لأنّها أجَلّ من أن تنالَ الإنسان أو ينالها الإنسان، مع أنّ هؤلاء الذين لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها الذين مَنَعوا النبوّة للإنسان ومنعوه عنها قد منحوا الربوبيّة للأوثان، وأعْطوا الألوهيّة للأصنام، ومَنْع النبوّةِ عن البشر ومَنْح الربوبيّة للحجر قسمة ضيزى، لا يرضى بها إلاّ أصحاب المدَرَ، وإخوان الدبَر والوبَر.

والسرّ في ذلك كلّه هو: أنّ هؤلاء المطبوع على قلوبهم لا يعرفون من الإنسان إلاّ ما يناله الحسّ دون ما لا يدرك إلاّ بالعقل، ولو أنّهم عرفوا الروح المجرّد الذي ليس مُتَزمّناً ولا متمّكناً ولا مُوجَّهاً بجهة من الجهات الستّ، ولا مُتَقدِّراً ولا ممسوحاً ولا موزوناً ولا مَكيلاً ـ وبالجملة: ليس محكوماً بحكم الموجود الماديّ أصلاً ـ لعلموا أنّه الذي نفخه الله في البَشَر، فصار به خليفة للّه، وتعلّم به أسمائه الحسنى، وصار بذلك مسجوداً للملائكة، ولامتنعوا من إتّباع إبليس الذي لم يَرَ من آدم(عليه السلام) إلاّ بَدَنه المخلوق من الطين، غافلاً عن روحه المجرّد الذي هو من عالم الأمر الذي مداره به كن فيكون، فجنود الشيطان

---

١ ـ الفرقان: ٧/٢٥.

٢ ـ التغابن: ٦/٦٤.

٣ ـ المدثّر: ٢٥/٧٤.

لا يرون من البشر إلاّ شأنه المادّي، من الأكل والمشي في الأسواق؛ فلذا استوحشوا من دعواه النبوّة، واستنكروها واستكبروا تجاهها، كما أنّهم لو عرفوا الملك وما له من النزاهة عن الحياة البشريّة لعلموا أنّه لا يكون رسولاً إلى الناس، حيث إنّهم لا يرونه ولا يمكن لهم الإئتساء به، وإن يكن رسولاً إلى النبيّ(صلّى الله عليه وآله وسلّم) الذي يراه بملكوته، ويتحمّل ما ينزل هو به من الوحي.

ولعلّ الذي أوقعهم في هذا الزعم الفاسد هو جهلهم بتجرّد الروح الإنساني، وبصلوحه لأن يناجي ربّه ويعرج إليه، ويتلقّى منه ما يُلقى إليه؛ ولذا حكموا بأنّ الإنسان ينعدم بالموت رأساً، ولا حياة بعد الممات، ومَن هذا مَدىٰ عِلمه كيف يتيسّر له أن يُدرك نبوّة الإنسان وصلوحه لرسالة الله سبحانه؟!

الصلة الثالثة

في ضرورة النبوّة



إنّ الضرورة هنا ـ أي ضرورة النبوّة ـ بمعنى لزوم وجود النبـيّ(صلّى الله عليه وآله وسلّم)، وتحتّم بعثه، ووجوب إرساله، وعدم جـواز تركـه عقـلاً، وحيـث إنّ النبوّة ممكنة ذاتاً فضرورتها تكون بالغير، لا بالذات، وبما أنّ الضروري بالغير قـائم بذلك الغير، ومعتمد عليه، ومستند إليه، فلابدّ من مبدأ يستند إليه تحتّم النبوّة.

وحيث إنّ المبدأ الوحيد الصالح لأن يستند إليه كلّ أمر ضروريّ بالغير هو الله ـ الذي يكون وجوب وجوده ضروريّاً أزليّاً ـ، فالله هو المصدر لضرورة النبوّة.

وحيث إنّ الضروري بالغير متقوّم بالضروري الذاتي، فيكون معنى تحتّم النبوّة هو ضرورة صدورها عنه، لا وجوبها عليـه، إذ لا يحكـم علـى الحـاكم المحـض والحَكَم المطلق شيء أصلاً، إذ العقل بعد استقلاله بـإدراك الحُـسن والقـبح فـي الجملة، وأنّ بعض الأُمور كالعدل حَسَن ذاتاً، وبعض الأُمور كـالظلم قبـيح ذاتـاً، وبعد إثباته المبدأ الأزلـي لكلّ موجود ممكن، وإثبات الوحدة الذاتيّة له بحيـث لا عديل له ولا نديد، وإثبات الأسمـاء الحـسنى والـصفات العُليـا كالحيـاة والعلـم والقدرة، وإثبات الحكمة والغناء، وإثبات الحُسن للنبوّة والرسـالة لهدايـة النـاس إلى صلاحهم، وذبِّهم عن طلاحهـم، وإثبـات أنّ المبـدأ الوحيـد لتعـيين النبـيّ وإرسال الرسول وإنزال الكتاب هو الله الحكيم، وإثبـات أنّـه سـبحانه فـوق أن

يحكم عليه شيء، إذ ذلك الشيء المعبّر عنه بالقانون مثلاً، إمّا واجب، أو ممكن، وليس بواجب لبرهان التوحيد الدالّ على أنّ الله سبحانه لا شريك له، وليس بممكن؛ لأنّ الممكن مخلوق للّه، ومحكوم بحكمه، وتابع لأمره، وخاضع لديه، وداخر عنده، فكيف يكون حاكماً عليه، فلا محالة تكون النبوّة صادرةً عن الله تعالى بالضرورة، والرسالة ظاهرة منه سبحانه كذلك، بلا حكومة عليه تعالى أصلاً، كما أنّ الوفاء بالعهد والوعد حَسَن وضروريّ صادر عن الله وظاهر منه، بلا وجوب شيء منها عليه تعالى، بمعنى أنّ الله يفي بعهده ووعده قطعاً، لا أنّه يجب عليه تعالى أن يفي بذلك.

الصلة الرابعة

فــي سبب ضرورة النبوّة من الله للناس

إنّ الله سبحانه ربّ للعالمين، ولا مثيلَ له فــي ذلك، ولا مدبّر للعالم سواه، فهو تعالى ربّ للإنسان، كما أنّه تعالى ربّ ومدبّر لغيره من أجزاء العالم.

وإنّ تدبير كلّ شيء هو إعطاء ما هو حقّه ـ أي ما هو مستحقّ لـه ومـستعدّ له ـ ، فحقّ الجماد بحسبه، وحقّ النبـات بقـدره، وحـقّ الحيـوان بحـدّه، وحـقّ الإنسان بشأنه، كما قال موسى الكليم(عليه السلام) لفرعون لمّـا سـأله عـن ربّ العالمين: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1]، أي أعطى كلّ شـيء مـا هو من حقوقه الطبيعيّة، وعيّن له مقصداً يناسخه، وأحدَثَ لـه صـراطاً مـستقيماً يصل إليه، وهداه إلى هذا الصراط الذي سلوكه يوجب الوصول إلى ذلك المقصد.

فهذه الآية تحتوي على الأنظمة الثلاثة:

الأوّل: هو النظام الفاعلي.

والثانــي: هو النظام الداخلي.

والثالث: هو النظام الغائي.

وحاصله: هو أنّ الله أوجد كلّ شيء وأعطى له ما يلائم ذاتـه ولـوازم ذاتـه، وبَيَّن له غاية يصل إليها بتطرّق ما هداه إليه.

والإنسان موجود متفكّر مختار، فقوامه بالعلم الصائب، وحياته بالعمل الـصالح، فلابدّ من تدبير الله إيّاه بالعلم النافع، والعمل الزاكي الفـالح، وحيـث إنّ الإنـسان

---

١ ـ طه: ٢٠/٥٠.

ناقص، أي محتاج إلى أُمور لا يقدر أن يكفيها، فلابدّ له من مدبّر هادٍ يكفيه ما يُهمّه يقضي حاجته العلميّة، وافتقاره العملي من خارج، بخلاف الموجود المكتفي الذي يحتاج إلى أُمور، ولكنّ له أن يكفيها من عنده، وإن كان كافي الكلّي هو الله الذي ورد في حقّه: ﴿كَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾[1].

وبخلاف الموجود التامّ الذي يكون بدئه وختمه واحداً، أي أعطاه الله سبحانه ذلك بأن خلقه مجرّداً تامّاً، غير محتاج إلى غيره تعالى، والله سبحانه هو الموجود فوق التمام، ـ أي غنيّ بذاته ـ ولا يحتاج إلى شيء حتّى يكفيه هو أو غيره؛ لأنّه غنيّ لا أنّه مستغنٍ، وهو سبحانه مع غناه الذاتي يكفي حاجة، أي مفتقر من الناقص والمكتفي والتامّ، ولذا يعبّر عنه سبحانه بأنّه فوق التمام.

والحاصل: أنّ الإنسان ناقص، ولابدّ له من كافٍ، ولا كافي سوىٰ الله سبحانه، فلابدّ للإنسان من أن يكفيه الله سبحانه؛ لأنّ ربّ الإنسان هو الله، والربّ هو الذي يربّ ويدبّر مربوبه، ولازم هذا التدبير هو التربية العلميّة والعمليّة له.

وحيث إنّ الإنسان العادي الناقص لا يقدر أن يتلقّى العلم من لدى الله بلا واسطة، فلابدّ له من وسيطٍ مكتفٍ، أو تامّ يتلقّى هو من عند الله سبحانه ما يهديه إلى العلم الصائب، والعمل الصالح، وهذا الواسط نبيّ من حيث تلقّيه النَبَأ السماوي، ورسول من حيث إلقائه ما تلقّاه إلى البشر الأرضي.

فلو أهمل الله الإنسان وتركه سدىً بلا نبوّة ورسالة يلزم أن لا يكون ربّاً له، أو يترك ما هو وظيفته التي حَتَمَها وكتبتها هو على نفسه، حيث قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[2]، والتالي بكلا شقّيه محال، فالمقدّم مثله.

---

١ ـ الفرقان: ٣١/٢٥.

٢ ـ الأنعام: ٥۴/۶.

والدليل على أنّ الإنسان ليس بمكتفٍ هو أنّ الإنسان الخارج من بطن أُمّه جاهلاً بكلّ شيء، وغير عالم بشتّى ممّا يحتاج إليه: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾[1]، مسافر من دار إلى دار، ومهاجر من الدنيا إلى الآخرة، وليس الموت إلاّ قنطرة يُعبر بها من عالم إلى عالم آخر؛ ولذا يكون وفاة لا فوتاً، وهجرة لا زوالاً، ووجوداً لا عدماً.

وحيث إنّ ما بعد الموت برزخ وقيامة، وجنّة وجحيم، ولا اطّلاع للإنسان على ذلك، ولا عثور له به، فلا يعلم ما زاده إليه، ولا رحله إليه، ولا ما يكفيه هناك، فلابدّ من رسول من الله يعلّمه الكتاب والحكمة ويزكّيه، ويهديه إلى زاده وراحلته، وإلاّ احتجّ الإنسان على الله يوم المعاد بأنّك خَلَقتني جاهلاً، ونقلتني من الدنيا إلى هذه الآخرة غافلاً، ولم ترشدني إلى شيء من ذلك، ولم تَكْفِني ما هو زادي وراحلتي ومعيشتي، ثمّ تريد أن تؤاخذني وتدخلني النار التي كلّما نضج جلدي فيها بدّلتني جلداً غيره، لأذوق العذاب.

حاشا وهيهات، أن يكون ذلك قسطاً وعدلاً، ويستحيل صدوره منك، وقد بيّن الله سبحانه هذه الضرورة في قوله تعالى: ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌم بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيماً﴾[2]؛ لأنّ محتوى هذه الآية هو أنّ المعاد يوم الاحتجاج أوّلاً؛ لأنّه يوم الحساب والمحاكمة، فلابدّ هنالك من حجّة قاطعة يستقرّ العدل في لوائه، فللّه أن يحتجّ على عبده، وللعبد

---

١ ـ النحل: ٧٨/١٦.

٢ ـ النساء: ١٦٥/٤.

أن يحتجّ على الله ثانياً، فلو لم يكف الله نقص عبده في الدنيا بإنزال الكتاب، وإرسال الرسول، ثمّ طلب منه الإيمان والعمل الصالح، لاحتجّ العبد على الله بأنّك ما هَدَيتني، وما أرشَدتني إلى شيء من ذلك، فلِمَ تطلب منّي ما لم تهدني ولم تأمرني بالصلاح، ولم تنهنى عن الطلاح، ولِمَ تؤاخذني بترك التقوى، ولِمَ تزجرني بفعل الطَغْوى، ولَمْ تَهدني إلى شيء من ذلك.

وحيث إنّه يستحيل أن تتمّ حجّة العبد على الله لاستلزام ذلك جور الله الذي لا يظلم أحداً، ولاستيجابه حيف الله الذي لا يحيف أصلاً، وما ربّك بظلاّم للعبيد؛ لأنّه العدل المحض، والحَكَم القسط، وهو خير الحاكمين، فالبعث ضروريّ.

ويمكن أن يستفاد هذا المطلب بلسان آخر وتقريب خاصّ من قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَـٰبِ وَ الْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَـأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَـةُ * رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَـةٌ﴾[1]؛ لدلالة هذه الآية على أنّ النبوّة ضروريّة للإنسان نظير ما تقدّم من دلالة تلك الآية على أنّها ـ أي النبوّة ـ ضروريّة عن الله لا على الله.

فتبيّن أنّ النبوّة ضروريّة، وأنّ هذه الضرورة عن الله، لا على الله، وأنّها للإنسان، ومن يحذو حذوه من الموجود المتفكّر المختار الناقص المحتاج إلى من يعلّمه الكتاب والحكمة، وأنّ الله قد أمضى هذا البيان بلسان الاحتجاج، وأنّه تعالى قد أتمّ الحجّة على الإنسان ببعث النبيّ وإرساله، وإنزال الكتاب معه، فللّه تعالى الحجّة البالغة، وحجّة من لم يؤمن بالله ولم يعمل صالحاً داحضة عند الربّ يوم الحجاج.

---

١ ـ البيّنة: ٩٨/١ ـ ٣.

الصلة الخامسة

فــي كلّيّة النبوّة ودوامها



إنّ الاستدلال على ضرورة النبوّة للإنسان تارة بأنّه مدنـيّ بـالطبع، ومحتـاج إلى تعامل وتقابل بين الأفراد، فلابدّ له من قانون ومُقَنّن، ولا يـصلح للتقـنين إلاّ الله سبحانه حسبما هو الدارج فـي غالب المتون النقليّة والعقليّة، كما أشـار إليـه مولانا الإمام الصادق(عليه السلام)[1].

وهذا الاستدلال تامّ فـي الجملة، لا بالجملة؛ إذ لا يدلّ على ضـرورة النبـوّة للفرد العاري عن المشاركة، بل إنّما يدلّ على ثبوتها للمجتمع البشري المحتاج إلى التعامل والتقابل، وتارة أُخرى بأنّ الإنسان ناقص محتاج إلى من يكفيه فـي رقيّه العلميّ والعمليّ، وهذا البرهان كما ينتج ضرورة النبـوّة للمجتمـع كـذلك يثبتـها للفرد أيضاً، فأيّ إنسان سواء كان منفرداً أو مع غيره من أبناء نوعه فهـو محتـاج إلى النبوّة بالضرورة، فهذا الدليل كلّي يسع الفرد كما يسع الجمع.

ثمّ إنّ جَعْل الحدّ الأوسط للبرهان على النبوّة كون الإنسان مـدنيّاً بـالطبع لا ينتج احتياج الإنسان إلى من يكمّله ويكفيه حاجته، ويسدّ خلّتـه فـي المعـاد؛ لأنّه هناك ليس مدنَيّاً محتاجاً إلى التعامل؛ إذ لا بيع فيه ولا خلّة حتّى يحتاج إلى قانون التعامل والتقابل، كما أنّ المراد من كونه مدنيّاً بالطبع ليس هو أنّ الإنـسان

١ـ الكافـي ١: ١٦٨، ح ١.

مدنيّ بالذات، بل محتواه هو أنّ الإنسان ما دام في الدنيا فهو متمدّن، كما أنّ الوزن لبدن الإنسان ليس ذاتيّاً له؛ إذ هو ما دام في كرة الأرض محكوماً بالجاذبة يكون وَزِيْناً، وإذا خرج عن نطاق الجاذبة الأرضيّة وسافر إلى كرة أُخرى يفقد وزنه، ولو كان الوزن والثقل ونحو ذلك ذاتيّاً للإنسان لما انفكّ عنه، كائناً ما كان؛ إذ الذاتي لا يختلف ولا يتخلّف.

وأمّا إن جعل الحدّ الأوسط للبرهان على ضرورة النبوّة هو كون الإنسان ناقصاً غير مكتفٍ فهو ينتج افتقار الإنسان في المعاد أيضاً، ولكن إلى النبيّ من حيث إنّه إنسان كامل معصوم ووليّ للّه وله حقّ الشفاعة بإذن الله لمن ارتضى دينه؛ لأنّ كلّ نبيّ وليّ من أولياء الله، وهو من الذين اتّخذوا عند الله عهداً، ومن الذين يأذن الله له الشفاعة.

فتبيّن: أنّ النبوّة الضروريّة كليّة جامعة أوّلاً للفرد والمجتمع، وحاوية لأحكام تهذيب النفس، وتدبير المنزل، وسياسة المدينة، ودائمة شاملة للدنيا والآخرة ثانياً، بلحاظ الولاية التي هي باطن النبوّة، وكافلة لأمر الشفاعة يوم لا ينفع مال ولا بنون، ولا بيع فيه ولا خلّة، ولا شفاعة إلاّ لمن أذن له الرحمن.

الصلة السادسة

فـي أنّ البعث والإرسال سنّة إلهيّة

إنّ للّه سبحانه سُنناً لا تتخلّف عنه، ولا يتخلّف وجهه عنها، وإنّ البعث والإرسال من تلك السنن:

أمّا الأوّل: أي دوام السنّة وعدم تخلّفها، فمستفاد من قوله سبحانه: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾[1]؛ لدلالته على أنّ السنّة الإلهيّة لا تزول بلا بدل ولا معه، فلا تحويل ولا تبديل فيها؛ لأنّها أحسن ما يمكن؛ إذ لو كان هناك سُنّة أحسن منها ولم يسنّها الله سبحانه لكان لجهله بها أو لعجزه عنها أو لبخله فيها، والتالي بأسره ممتنع، فالمقدّم مثله، فليس هناك سنّة أحسن من السُنن الإلهيّة، وحيث إنّها أحسن ما يمكن فلا يبدّل الله ولا يُحوّل سنّته الحسنة إلى غيرها، وحيث إنّ ما سوى الله عباد داخرون، وضعاف خاضعون، فليس في وُسع أحد منهم أن يُبدّل سنّة الله أو يحوّلها، فصحّ بالقول المطلق: أنّ سنّة الله لا تُبدّل ولا تُحوّل.

ثمّ إنّ التعبير بقوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ...﴾ لخصوصيّة المقام الذي يدلّ فيه عدم الوجدان على عدم الوجود، كما في قوله سبحانه ـ لبيان نظم العالم، ونضد السماوات والأرض نظماً لا ينثلم ونضداً لا ينهدم ـ: ﴿مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[2].

---

١ ـ فاطر: ٣٥/٤٣.

٢ ـ الملك: ٦٧/٣.

لأنّ بعض الأُمور الهامّة يصحّ القول فيها: بأنّه لو كان لبان، فإذا لم يَبِن فيعلم أنّه لا يكون ـ أي لا يوجد ـ فقوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ...﴾ بمنزلة قوله تعالى: فلن يوجد التبديل ولا التحويل.

وأمّا الثاني: أي كون البعث والإرسال سنّة إلهيّة لا تخلّف فيها، فلدلالة قوله سبحانه: ﴿وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾[١]، ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾[٢]؛ إذ المستفاد من كلمة: «كنّا» هو الدوام وعدم التخلّف، وهذا غير التعبير بالفعل الماضي أو المضارع المحض، كما أنّ المستفاد من قوله سبحانه: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾[٣]، ذلك أيضاً بعد انضمام هذه المقدّمة المطويّة، وهي أنّ إنذاره تعالى إنّما هو بالبعث والإرسال، وقريب من تلك الآيات في الدلالة على أنّ البعث سنّة لا تتغيّر قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾[٤]، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً﴾[٥]، ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾[٦]، ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾[٧]؛ إذ مستفاد منها تواتر الرسل، وتواصلهم في كلّ عصر، ولكلّ مصر ونسل، فهل هذا إلاّ دوام السنّة واستمرار الدأب؟!

---

١ ـ القصص: ٤٥/٢٨.

٢ ـ الدخان: ٤/٤٤.

٣ ـ الدخان: ٣/٤٤.

٤ ـ يونس: ٤٧/١٠.

٥ ـ النحل: ٣٦/١٦.

٦ ـ فاطر: ٢٤/٣٥.

٧ ـ المؤمنون: ٤٤/٢٣.

الصلة السابعة

فـي أنّ أقطار العالم بالنسبة إلى السنّة سواسية



إنّ البرهان العقلي التامّ لا يُخَصَّص ولا يُقيَّد، إذ التخصيص والتقييد في الحكم الباتّ المعقول يناقضه؛ لأنّ السلب الجزئي فيه يناقض الإيجاب الكلّي، والإيجاب الجزئي فيه يناقض السلب الكلّي، بخلاف ذلك في الحكم المنقول؛ إذ التخصيص والتقييد فيه دارجان.

نعم بعض الأدلّة النقليّة آبٍ عن ذلك، ومنه ما تقدّم من الآيات الظاهرة في دوام السنّة واستمرار الدأب؛ لأنّ سِباقها مانع عن التخصيص، وسياقها عائق عن التقييد، فلكلّ أُمّة قادمة أو غابرة، ولكلّ قوم سالف أو آنف، ولكلّ بلد قريب أو بعيد، ولكلّ إقليم شرقيّ أو غربيّ نبيٌّ مبعوث، ورسولٌ مرسل، بلا واسطة أو معها، كما نطقت به الآيات المارّة، إلاّ أنّ الله قد قصّ قصّة بعضهم، ولم يقصّ قصّة بعضهم الآخر، كما تنطق به الآية: ﴿وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَ مِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾[1]، ولعلّ سرّ عدم قصّة بعضهم هو أنّهم كانوا في الشرق البعيد أو الغرب القاصي، ولم تصل أخبارهم إلى الشرق الأوسط الذي كان فيه سيّد الأنبياء(صلّى الله عليه وآله وسلّم) وقومه؛ لأنّ دأب القرآن الكريم بعد سَرْد قصّة نبيّ هو دعوة مخاطبيه إلى السير في الأرض،

---

١ ــ غافر: ٧٨/٤٠.

والنظر في عاقبة من أساءوا وكذّبوا رسولهم، وعتوا عتوّاً مبيناً، ولم يمكن دعوتهم إلى الفحص عن الذين كانوا في البلاد القاصية وراء البحار الكبار؛ فلعلّه لذا لم يصرّح في القرآن ببلدهم ولا برسولهم، كما لم يتعرّض لهؤلاء الأقوام الذين عاشوا في أقصى الأرض إلاّ نزراً قليلاً دَعَت إليه الضرورة أو المصلحة.

الصلة الثامنة

فــي أنّ بعض العلوم لا يتحصّل بدون النبوّة

إنّ الهدف السامي للبعث والإرسال هو هداية الناس إلى كمالهم، وحيث إنّ كمال الإنسان بالعلم الصائب والعمل الصالح، وإنّ العلم قائد بيده زمام العمل، وإن أمكن أن لا ينقاد له العمل في بعض الأُمور، فالعلم هو أصل خير؛ فلذا تعرّض له الله سبحانه في بيان وظيفة الرسول بقوله تعالى في غير آية: ﴿يُعَلِّمُكُمُ الْكِتَـٰبَ وَ الْحِكْمَةَ﴾[1]، ﴿وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَـٰبَ وَ الْحِكْمَةَ﴾[2]، وبالعلم يخرجهم رسوله من الظلمات إلى النور، وبالعلم ينقذ الرسول من كان أو يكون على شفا حفرةٍ من النار، وبالعلم يعتقهم وإن كانوا عبيداً أذلاّ، وبالعلم يهديهم وإن كانوا في ضلال مبين.

ثمّ إنّ بعض العلوم ممّا ألهم الله الإنسانَ إيّاه من فجوره وتقواه، وبعضها ممّا لا علم له به حين خرج من بطن أُمّه إلاّ أنّه يتعلّمه بالسمع والبصر والفؤاد، وبعضها ممّا هو كامن في عقول الناس، ولا يثيرها إلاّ الأنبياء الذين بُعِثوا لأنارة دفائن عقولهم، وبعضها ممّا لا علم للإنسان به بالفعل، وليس أيضاً في وسعه أن يتعلّمه من عنده أو من عند الناس أصلاً، بل لابدّ من بعث النبيّ وإرسال الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) حتّى يكون هو الذي يثير تلك الدفائن إن كانت هنالك

---

١ ـ البقرة: ٢/١٥١.

٢ ـ الجمعة: ٦٢/٢.

دفائن، أو حتّى يكون هو الذي يُعَلّمهم ما لم يكونوا يتعلّمون من عند أنفسهم ـ إن لم تكن هناك دفائن ـ، كما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَ يُزَكِّيكُمْ وَ يُعَلِّمُكُمُ الْكِتَـٰبَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾[1]، إذ المستفاد من كلمة: «لم تكونوا» هو الاستمرار، أي ليس في وسعكم أصلاً أن تصلوا إليه وتعلّموه من قِبَل أبناء البشر.

وحيث إنّ نطاق العمل تابع لمنطقة العلم سعة وضيقاً، وكان بعض العلوم موقوفاً لو لا تعليم النبيّ، فيكون أيضاً بعض العمل موقوفاً لو لا تعليم الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم)، وحيث إنّ كمال الإنسان بالعلم والعمل، وكان بعض هذين موقوفاً على تعليم النبيّ، فيكون بعض مراحل كماله متوقّفاً عليه، ولمّا كان ذلك البعض هو القسم الهامّ من الكمال؛ لكونه راجعاً إلى المبدأ وأسمائه الحسنى وإلى المعاد ومواقفه العليا، فيكون الكمال الحقيقي للإنسان متوقّفاً على النبوّة، كما تقدّم شطر من المباحث الراجعة إليه.

ولا ميز في هذا القسم من العلم بين النبيّ وغيره؛ لأنّ النبيّ وإن كان يعلم ما لا يعلمه غيره، وكان فائقاً على غيره في العلوم المشترك فيها بحيث لا نسبة بينه وبين غيره من العلماء، فضلاً عن غيرهم، إلاّ أنّ ذلك بتعليم خاصّ إلهيّ، لا يحصل بدون تعليمه تعالى أصلاً، كما يدلّ عليه قوله سبحانه: ﴿وَأَنزَلَ اللَّـهُ عَلَيْكَ الْكِتَـٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾[2]؛ لأنّ المستفاد من كلمة: «لم تكن»، هو ذلك، أي ما كنت تعلمه، وليس في وسعك أن تعلمه من عندك أو عند غيرك.

---

١ ـ البقرة: ١٥١/٢.

٢ ـ النساء: ١١٣/٤.

الصلة التاسعة

فــي غاية البعث وهدف الإرسال



إنّ للإنسان روحاً مجرّداً مفطوراً على التوحيد وما يرجع إليه، وبَدَناً مادّيّاً مخلوقاً من طين، فكلّ ما ورد في مدح الإنسان من الكرامة والخلافة وحمل الأمانة ونحوها يرجع إلى روحه المجرّد، وكلّ ما ورد في قدح الإنسان من أنّه هلوع، جزوع، منوع، قتور ظلوم، جهول ونحو ذلك يرجع إلى بدنه المادّي، يعني أنّ منشأ تلك الحسنات هو النفس الناطقة المجرّدة، ومنشأ هذه السيّئات هو البدن المادّي المخلوق من الطين.

لا بمعنى أنّ البدن هو المبدأ الفاعلي لهذه النقائص، بل هو السبب المادّي والقابلي لتكوّن هذه النواقص؛ ولذا تكون الملائكة الذين لا يعصون الله وهم بأمره يعملون، مصونين عن هذه الأُمور الخسيسة، وحيث إنّ النفس المجرّدة لو علمت معالي الأُمور وكَرِهَت سفسافها وراضَت البدنَ تحت تدبيرها الملكوتي، وعدّلت قواه بلا تعطيل، وهذّبت شئونه بلا إفراط ولا تفريط، فلها أن تشاهد ما هو المغيب، وتعاين ما هو المخفيّ عن العيون والآذان، وهذا هو النور الباطني الذي يُضيء القلب السليم؛ فبه يرى ما لا يراه غيره.

ومن قال: كأنّي أنظر إلى عرش الرحمن بارزاً، وكأنّي أرى الجنّة وأهلها، وكأنّي أرى النار وأهلها، وصدّقه الرسول الأعظم، وقال(صلّى الله عليه وآله

وسلّم) فـي حقّه: «هذا عبدٌ نوّر الله قلبه»، ثمّ أمره بالثبات، وقال: «اثبـت»، ودعا(صلّى الله عليه وآله وسلّم) له بالشهادة بعد ما استدعاه منه[1]، فهـو مـن هذا القبيل.

ونيل هذا المقام ونحوه هو غاية البعث، والصعود إليه هو هدف الرسالة حسبما يستفاد من قوله سبحانه: ﴿الر كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَـٰتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[2]؛ لأنّ كـلّ علـم صـائب وكـلّ عمل صالح وإن أمكن أن يطلق النور عليه، ولكنّ النور بمعناه الحقيقي هو الظاهر بذاته المظهر لغيره، الغائب عن البصائر، كغيبته عن الأبصار الذي به شاهد حارثـة بن مالك ما شاهد، وبه يشاهد أهل التقوى ما يشاهدون، كما فـي خطبـة همّـام التـي أنشأها أمير المؤمنين عليّ بن أبـي طالب عليه أفـضل صـلوات المـصلّين، حيث قال(عليه السلام): «فهم والجنّة كمن قد رآها، فهـم فيهـا منعّمـون، وهـم والنار كمن قد رآها، فهم فيها معذّبون»[3].

وبسبب هذا النور المعقول لا المحسوس يحيي القلب، وتمـوت الـنفس، ويـدقّ الجليل، ويلطف الغليظ، وبرق لصاحبه لامع كثير البرق، كما أشـار إليـه سـيّد الأولياء الموحّدين عليّ بن أبـي طالب(عليه الـسلام) فـي قولـه: «قـد أحيـا عقله، وأمات نفسه، حتّى دقّ جليله، ولطف غليظه، وبرق له لامع كثير الـبرق، فأبان له الطريق، وسلك به السبيل، وتدافعته الأبواب إلى بـاب الـسلامة، ودار

١ ـ الكافي ٢: ٥٣، ح ٢.

٢ ـ إبراهيم: ١/١٤.

٣ ـ نهج البلاغة: خطبة ١٩٣.

الإقامة، وثبتت رجلاه بطُمأنينة بَدنِه فـي قرار الأمن والراحة، بما اشتغل قلبـه، وأرضى ربّه»[١].

وهذا النور المعقول هو الذي يخـرج المـؤمن ـ الـذي تحـت ولايـة الله ـ مـن الظلمات إليه، كما فـي قوله تعـالى: ﴿اللَّـهُ وَلِـيُّ الَّـذِينَ ءَامَنُـواْ يُخْـرِجُهُم مِّـنَ الظُّـلُمَـٰتِ إِلَى النُّورِ﴾[٢].

وأمّا الأُمور الأخلاقيّة والفقهيّة والحقوقيّة والسياسيّة والاجتماعيّـة فمتفرّعـة على ذلك الهدف الغالـي والمقصد العالـي؛ لأنّ الأُمّة المثاليّة تقوم بالقـسط قطعـاً، وتصير مصداقاً كاملاً لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُـلَنَا بِالْبَيِّنَـٰتِ وَ أَنزَلْنَـا مَعَهُـمُ الْكِتَـٰبَ وَ الْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[٣]، وهكذا تـصير مـورداً لـشمول قولـه تعالى: ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾[٤]، ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّـذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِالْقِسْطِ﴾[٥]؛ لأنّ الأمّة النورانيّة ترى باطن العـدل والقسط من الجمال والبهاء، وترى باطن الجور والقسط من القبح والشنعاء؛ فلـذا تُحِبّ العدل، وتُبغض الجور، وتشتاق إلى القِسط، وتتنفّر من القَسط، كما يـشتاق سليم الحسّ إلى الرائحة العطرة، ويتنفّر من الرائحة القذرة.

---

١ ـ نهج البلاغة: (خطبة)، كلام ٢٢٠.

٢ ـ البقرة: ٢٥٧/٢.

٣ ـ الحديد: ٢٥/٥٧.

٤ ـ النساء: ١٣٥/٤.

٥ ـ المائدة: ٨/٥ .

فتبيّن أنّ الغاية القصوى للبعث والهدف الأسنى للرسالة هو صيرورة الأُمّة المؤمنة نورانيّة أوّلاً، وأنّ قيامها بالقسط وكونها قواماً به للّه وقواماً للّه بالشهادة مطلوب ثانياً، وأنّ النور الباطني عاصم للأُمّة عن العَسْف والحَيف ثالثاً، وأنّ العسف يدعو إلى السيف رابعاً، وأنّ السيف علاج ما لا علاج له؛ لأنّ آخر الدواء الكيّ خامساً، كما تُكوى جباه الجبابرة وجنوبهم وظهورهم؛ لأنّهم الطغاة اللئام والفَجَرة الخصام يوم التَناد سادساً.

الصلة العاشرة

فــي أنّ الغاية للمخلوق لا للخالق

إنّ البعث والإرسال فعل اختياريّ للّه سبحانه، وكلّ فعل اختياريّ لـه غايـة، فللبعث والإرسال غاية كما تقدّم، إلاّ أنّ غاية فعل الله ترجع إلى مخلوقـه لا إلى نفسه، وبيان ذلك:

أنّ الله سبحانه حكيم بلا ريب، فلفعل الحكيم غاية ينحوهـا الفعـل، ولا ميـز فـي هذا الأصل الجامع بين خلق الإنسان وخلق العالم كلّـه وبعـث الرسـول، إذ الحدّ الأوسط فـي هذا البرهان هو حكمة الباري تعالى المتحقّقة فـي جميع ذلـك، وأنّ الله غنـيّ بذاته، أي لا يحتاج إلى شيء أصلاً؛ لأنّه الكمال الذي لا حـدّ لـه، فكلّ ما يفرض كمالاً للوجود من حيث إنّه وجود بلا دخالة للماهيّة ولا للمـادّة فهو حاصل للّه بالضرورة الأزليّة، وكلّ فاعل يفعل فعلاً لغاية فهو ناقص، يحتـاج إلى التكامل، ويجعل فعله واسطاً بينه وبين الكمال.

وأمّا إذا كان الفاعل كاملاً محضاً، ومنه الجود والإفاضة الإختيـار فهـو لكونـه فيّاضاً مختاراً، يصدر منه الفعل، فهو كما أنّه مبدأ فاعليّ بالذات بحيـث لا فاعـل له، فهو مبدأ غائيّ بالذات بحيث لا غاية له، إذ لا غاية لمن هو غاية بالذات، كما لا فاعل لمن هو هكذا؛ ولذا يعبّر عن الله سبحانه بأنّه الآخِر كما أنّـه هـو الأوّل، وكلّ أوّل غيره غير الآخر، قال سيّد الموحّـدين علـيّ بـن أبـي طالـب(عليـه السلام): «أشهد أن لا إلـه إلاّ الله وحـده لا شـريك لـه، الأوّل لا شـيء قبلـه،

والآخر لا غاية له»[1]، وقال(عليه السلام): «الحمد للّه الذي لم تسبق له حالٌ حالاً، فيكون أوّلاً قبل أن يكون آخراً، ويكون ظاهراً قبل أن يكون باطناً»[2].

فتبيّن أنّ الله سبحانه لكونه حكيماً مختاراً فلفعله غاية ينتهي إليها، وهدف سامٍ يصل إليه، ولكونه غنيّاً بالذات فلا غاية له ولا هدف؛ لأنّه غاية الغايات وهدف الأهداف؛ فلذا اشتمل القرآن الحكيم على الأمرين:

أحدهما: قوله سبحانه: ﴿وَ مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الاِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[3].

وثانيهما: قوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَ مَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[4]، وهكذا الأمر في غاية البعث والإرسال.

فإن آمن الناس وأطاعوا الرسول المبعوث إليهم فنالوا ما هو الغاية، وإن كفروا وعصوه وعتوا عتوّاً مبيناً فقد خسروا خسراناً بيّناً، وقال سيّد الأوصياء عليّ بن أبي طالب(عليه السلام): «خلق الخلْق حين خلقهم غنيّاً عن طاعتهم، آمِناً من معصيتهم؛ لأنّه لا تضرّه معصية من عصاه، ولا تنفعه طاعة من أطاعه»[5]، كلّ ذلك مأخوذ من قوله سبحانه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَـٰلَمِينَ﴾[6]، كما استدلّ هو(عليه السلام)بهذه الآية في الخطبة الأُولى من نهج البلاغة، فالغاية للفعل لا للفاعل، والهدف للبعث والإرسال لا للباعث والمُرسِل.

---

١ ـ نهج البلاغة: خطبة ٨٥ .

٢ ـ نهج البلاغة: خطبة ٦٥.

٣ ـ الذاريات: ٥١/٥٦.

٤ ـ إبراهيم: ١٤/٨ .

٥ ـ نهج البلاغة: خطبة ١٩٣.

٦ ـ آل عمران: ٣/٩٧.

ثمّ إنّه لا اعتداد بعتوّ الطغاة اللئام تشريعاً بعد ما استقرّ دأب العالم من صدره إلى ساقه ومن بدأه إلى ختامه على تسبيحه وتحميده، والتسليم له، والسجود له، والطوع له، ودخوره عنده تكويناً، فهذه العناوين الستّة ممّا صرّحت الآيات العديدة من القرآن الحكيم بها، وشملها قوله سبحانه: ﴿إِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[1].

فكما ينفر من كلّ فرقة طائفة ليتفقّهوا الفقه والأُصول والسيرة والمغازي ونحوها، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم، كذلك يلزم أن ينفر الخواصّ من المهذّبين والأولياء من الذين زكّاهم الله برسوله وأهل بيته؛ ليتفقّهوا تسبيح السماوات والأرض وتحميدها، وليكشفوا هذا الباب لمن كان له أهل.

---

١ ـ الإسراء: ٤٤/١٧.



الصلة الحادية عشر

في تحديد النبوّة بالحقّ



إنّ النبوّة آية من الآيات الإلهيّة، كما أنّ النبيّ مظهر من المظاهر الربّانيّة، وخليفة من الخلفاء الحقّة؛ وذلك أنّ الله سبحانه لا يخلق ما ليس بحقّ؛ لأنّه جزاف وباطل، ولا طريق لشيء من ذلك إلى صنع الله الذي يكون قوله فصلاً، ولا يكون هزلاً، وأنّه تعالى أيضاً لا يُهمل ما هو الحقّ، ولا يترك ما هو الجِدّ، وإن كان ذلك بنحو الضرورة عنه لا بنحو الضرورة عليه، كما تقدّم.

ويتحصّل من هذين الأصلين: أنّ النظام الكياني حقّ بتمامه، وما هو الحقّ داخل فيه، فلا شيء من النظام بباطل، ولا شيء من الحقّ بمتروك، ويجمع هذين الأمرين قوله: ﴿وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَآءَ وَ الأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلاً﴾[1] وقوله سبحانه: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَـٰوَٰتِ وَ الأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾[2].

وحيث إنّ النبيّ خليفة الله وأمينه في تعليم الكتاب والحكمة وتزكية النفوس فلا يأتي بما هو باطل، ولا يترك ما هو حقّ بالقياس إلى رسالته، فبناء نبوّته محدودٌ بالحقّ، بحيث لا مجال للباطل فيه أصلاً، كما لا مجال لترك الحقّ فيه أبداً، ويشهد لذلك قوله سبحانه: ﴿... مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ﴾[4].

---

١ ـ ص: ٢٧/٣٨.

٢ ـ الأحقاف: ٣/٤٦.

٣ ـ المائدة: ١١٦/٥.

٤ ـ الأعراف: ١٠٥/٧.

والمراد من القول هنا هو: مطلق الفعل الشامل لما يصدر من الجوارح والجوانح أوّلا، والشامل لترك ما هو اللاّزم ثانياً؛ لأنّ الإنسان مسئول عمّا فعل وترك، ولو ترك النبيّ شيئاً ممّا كان اللاّزم عليه فعله لصدق عليه أنّه فعل ما ليس بحقّ، وترك ما هو الحقّ الذي حقيق به أن يأتي به.

فلا يترك النبيّ شيئاً من الحقّ إيهاناً، ولا إدهاناً، ولا تسامحاً، ولا تساهلاً، كما أنّ الله الذي جعله خليفة له هكذا، لكنّ الله بالإصالة، وهو إلى النبيّ بالخلافة، ولكنّ الله يجب الحقّ عنه، والنبيّ يجب الحقّ عليه، حيث إنّ النبيّ كالأُمّة مسئول يوم القيامة عن جميع ما فعل وما ترك، كما يدلّ عليه قوله سبحانه: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾[1]، وأنّ الله سبحانه أعْلَمَهم بأنّه تعالى قد أحاط بهم، ويعلم ما كانوا يفعلون، حيث قال سبحانه: ﴿يَـٰأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ الطَّيِّبَـٰتِ وَاعْمَلُواْ صَـٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ الْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعُ بَصِيرٌ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾[3].

وحيث إنّ النبوّة محدّدة بالحقّ، فالنبيّ مهدّد بترك ولاية الله ونصرته، فإذا لم يتولّ الله أمره ولم ينصره يصير مخذولاً، إذ لا واقي سوى الله تعالى، ويدلّ عليه غير واحدة من الآيات، منها قوله سبحانه: ﴿وَلَـئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا

---

١ ـ الأعراف: ٦/٧.

٢ ـ المؤمنون: ٥١/٢٣.

٣ ـ الحجّ: ٧٥/٢٢ و٧٦.

جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَ لاَ وَاقٍ﴾[1]، وقد صرّح الله سبحانه بأنّه: ﴿لَوْلاَ أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَآءِ وَ هُوَ مَذْمُومٌ﴾[2].

فتبيّن أنّ النبوّة ميثاق إلهيّ، يدور مدار الحقّ أينما دار، بحيث لا يختلف هذا الميثاق مع الحقّ، ولا يتخلّف عنه، وأنّها محدّدة بالحقّ وجوداً وعدماً، وأنّ النبيّ مهدّد في فرض ترك الحقّ وفعل الباطل، وأنّه كسائر الناس مكلّف بما في الشرع إلاّ أنّه لعصمته المانعة من الاختلاف والتخلّف أمينٌ مطلقاً، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

---

١ ـ الرعد: ٣٧/١٣.

٢ ـ القلم: ٤٩/٦٨.

الصلة الثانية عشر

فــي أنّ الحقّ من الله وحده



إنّ النبوّة مُحَدّدة بالحقّ كما تقدّم، وإنّ الحقّ من الله وحده لا غير، كما مرّ ذلك في الجملة، ويلزم الاستدلال عليه بالقرآن الذي هو حقّ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي يدلّ على انحصار الحقّ في فعله تعالى وقوله، هذه الآية: ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾[1].

فلو كان هناك حقّ من قول أو فعل فلا محالة كان صادراً من الله، أو ظاهراً منه، وإلاّ لزم أن يكون الحقّ من غيره تعالى أيضاً، فذلك الغير إمّا واجب أو ممكن، وكلاهما باطل: أمّا الواجب الآخر فلبرهان التوحيد الدالّ على أنّ الله لا شريك له أصلاً، وأمّا الممكن فهو بهويّته وعوارضه وأعراضه وجميع ما له من الحيات والممات مفتقر إليه تعالى، ومعتمد عليه، وواثق به؛ لأنّه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فإن كان عنده شيء من الحقّ فلابدّ من أن كان موهوباً من الله سبحانه.

ويتحصّل من ذلك: أنّ كلّ قول أو فعل لا يكون من الله بلا وسيط أو معه فهو هوىً باطل، وهذا هو السرّ في تقابل الهدى والهوى في القرآن الحكيم، وكذا التقابل بينه وبين العلم، والتقابل بينه وبين الحقّ، وبينه وبين الوحي؛ إذ

---

١ ـ آل عمران: ٣/ ٦٠.

الوحي والعلم والهدى حقّ، والحقّ من الله، والهوى المقابل لشيء من ذلك باطل، فليس من الله في شيء؛ لأنّ منشأ الهوى إمّا جهلٌ علمي، أو جهالة عمليّة، وكلاهما بعيد عن ساحة الله تعالى؛ لنزاهته عن كلّ نقص، وبرائته عن كلّ عيب، سبّوح قدّوس، ربّنا وربّ الملائكة والروح، وما ليس من الله بلا وسط أو معه فهو هوىً وردىً وإن كان بعد التقدير والتفكير، كما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَ قَدَّرَ...ثُمَّ نَظَرَ...فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾[1].

فالمراد من الهوى المقابل للوحي ليس هو الهوس الدارج، بل كلّ ما دقّ ولطف، وكان عميقاً عند بعض، وعريقاً عند آخرين، ولكن كان مخالفاً لما صدر من الله فهو زخرف مضروب على الجدار، وهوىً نسجته يد الخيال، وردىً غزلته يد الوهم.

ثمّ المهمّ هو العناية بأمرين ضروريّين:

الأوّل: إنّ البرهان العقلي الواجد لشرائط صورة القياس ومادّة الصناعة، أي تكون مباديه التصديقيّة بيّنةً أو مبيّنة منتهيةً إليها، فهو كاشف عن الحقّ الصادر منه تعالى؛ إذ العقل التامّ ـ المنزّه عن الوهم، المبرّأ عن الخيال ـ شرع من داخل وباطن، كما أنّ الشرع عقل من خارج وظاهر، والعقل مقابل للنقل لا للشرع؛ فلذا يعدّ من الأدلّة الشرعيّة في فنّي الفقه والأُصول، فهو حجّة إلهيّة معاضدة للحجّة الإلهيّة الأُخرى؛ لأنّ للّه على الناس حجّتين، كما أُشير إليه.

الثاني: إنّ الميزان القسط والحَكَم العدل هو الوحي الصادر من الله الناطق بالحقّ؛ لأنّه تبيان ونور بنفسه، ولا عدل له إلاّ العترة الطاهرة الهداة المهديّين

---

١ ـ المدّثّر: ١٨/٧٤ ـ ٢٤.

المعصومين بعصمة إلهيّة، لا ما يستنبطه بعض ما له أُنس بمباديه الخاصّة، بحيث يجعل الوحي مرآةً لنفسه، حتّى يرى شخصه وعقيدته وعلمه فيها؛ لأنّ الوحي ميزان إلهيّ، لا أنّه مرآة لكلّ أحد حتّى يري رأيه فيها، ويحسبه أنّه هو الوحي، نعم، قد يكون الكتاب التدويني مرآةً للكتاب التكويني.

وتمييز موردي المرآة والميزان صعب مستصعب لا يحتمله إلاّ من آتاه الله نوراً من فضله.



الصلة الثالثة عشر

فـي بقاء النبوّة وزوال الملك

إنّ كلّ واحد من العالم والإنسان والربط بينهما خُلِقَ بالحقّ، ولا سبيل للبطلان تكويناً إلى شيء من ذلك، فمن أراد البقاء النسبي فله أن يستنّ بسنن الحقّ، حتّى لا يعارضه شيء ممّا في العين، فمن لم يرد الحقّ بل أراد الباطل فكأنّما خرّ من السماء، فتخطفه الطير، أو تهوي به الريح في مكان سحيق، وحيث إنّ النبوّة حقّ، والنبيّ يدور مدار الحقّ حيثما دار، فلا محالة يكون له سهم من البقاء، بحيث يصير مَظهراً للاسم الذي هو الباقي، والمراد هو بقاء حيثيّة نبوّة النبيّ، وجهة نورانيّته التي تتلقّى الوحي من الله سبحانه، وتُلقيه إلى الناس بلا زيادة ولا نقص، لا حيثيّة بشريّة النبيّ الذي يعيش كغيره، ويموت كغيره، ويبعث كغيره، إذ لا بقاء في الدنيا التي هي القنطرة للآخرة لأحدٍ، كما لا فخر في بقاء الجسم بما هو جسد خالٍ عن الفضيلة، كبقاء الصخرة الصمّاء طيلة قرون.

وحيث إنّ البقاء مختصّ بوجه الله تعالى؛ لأنّ ما عداه هالك، كما يدلّ عليه قوله سبحانه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[1]، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[2]، فإن كان للنبيّ بقاء ـ كما يكون ـ

---

١ ـ الرحمن: ٥٥/٢٦ و٢٧.

٢ ـ القصص: ٢٨/٨٨.

فلأنّ جميع شؤونه من المحيا والممات لوجه الله، لأنّه لا يُعلّم الناس الكتاب والحكمة إلاّ لوجه الله، ولا يزكّيهم إلاّ له، ولا يعلّمهم ما لم يكونوا يعلمون إلاّ له، وهذا هو المراد من قول غير واحد من الأنبياء(عليهم السلام): ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ﴾[١]، وسرّ بقاء وجه الله الذي هو أجر الرسالة هو أن لا شيء، ولا جهة، ولا حيثيّة خالية عن وجهه، إذ أينما تُولّوا وجوهكم فثمّ وجه الله، فإذا كان جميع ما سوى الله جنوده، ﴿وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّمَـٰوَ ٰتِ وَ الأَرْضِ﴾[٢]، ﴿وَ مَا يَعْلَـمُ جُنُـودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾[٣]، ولا شأن للجند إلاّ الطوع، فلا منع ولا ردع من ناحيته عمّا أراده الله من بقاء وجهه، فلا نفاد لوجه الله، لا من ناحية إرادة الله الذي أراد بقائه، ولا من جهة الطواري الطاردة؛ لأنّها بأسرها جنوده تعالى، فوجه الله باقٍ، لا دثور له أصلاً، وإن أمكن تحوّله من دار إلى دار، أو من حال إلى حال، فمن علم أو علّم أو عمل صالحاً لوجه الله فهو باقٍ، وحيث إنّ لوجه الله درجات وللعلوم والأعمال مراتب، فكلّ علم أو عمل كان أصوب وأصلح فهو بالقياس إلى غيره أبقىٰ، ولمّا كانت النبوّة التي يتلقّاها النبيّ والرسالة التي يُلقيها إلى الناس أصوب وأصلح من سائر علوم الناس الصائبة، وأعمالهم الصالحة، فذلك للبقاء أنسب، ولنيل الدرجة الرفيعة منه أليق، فالأنبياء والمرسلون باقون ما بقي الدهر؛ لأنّهم المصاديق الكاملة للعلماء الذين ورد فيهم ذلك[٤].

---

١ ــ يونس: ١٠/٧٢.

٢ ــ الفتح: ٤٨/٤.

٣ ــ المدّثّر: ٧٤/٣١.

٤ ــ نهج البلاغة.

وأمّا من أراد الحياة الدنيا، ونسي ما ورائها، واغترّ بالمُلْك، وآثره على العبادة التي خُلق لأجلها، ودسّى نفسها الملهمة بالفجور والتقوى، وسوّلته نَفسه المسوّلة، فهو قد أقبل إلى الفناء، وأدبر البقاء، فيصير محكوماً بالزوال، لاستقرار سنّة الله الذي لا تبديل لسنّته، ولا تحويل لها على جعل من طَغى، وآثر الأُولى على الأُخرى أن يجعله أحدوثة ملقاة: ﴿فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾[1]، وأن يقلعه حدّاً لا يرى له أيّ أثر، كما قال تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾[2]، حسبما شاهدناه في الثورة الإسلاميّة بإيران بقيادة سيّدنا الأُستاذ الإمام الخميني قدّس الله نفسه الزكيّة من أنّ الله قد مَزّق الطغاة اللئام كلّ ممزّق، وجعَلَهم أيادي سباء، ودمّرهم تدميراً، ومَكّن الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر في الأرض، والمرجوّ من الله سبحانه أن يوفّق سائر المسلمين لإقامة الأمْتِ والعِوَج بعد أن آثروا الأُخرى على الأُولى؛ لأنّ هذا المهمّ هو الركن الرصين الوحيد للنصر والظفر والفتح، إن شاء الله.

---

١ ـ سبأ: ١٩/٣٤.

٢ ـ يونس: ٢٤/١٠.



الصلة الرابعة عشر

في مساوقة النبوّة والخلقة

إنّ النبوّة إنّما هي لهداية الناس إلى مسيرهم ومصيرهم ومقصدهم ومقصودهم، وليس ذلك إلاّ الصراط المستقيم والسير عليه، والصيرورة من درجة منه إلى درجة أُخرى روحيّة، والاستعداد للوصول إلى المقصد، والتوفيق لشهود ثواب الله ورحمته الباقية؛ لأنّ ذلك هو هدف الخلقة حيث إنّه لم يخلق الإنسان إلاّ لذلك، ولا مناص له عنه، كما قال سبحانه: ﴿يَـٰأَيُّهَا الإِنْسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾[1]، فهداية الإنسان إلى معرفة نفسه أوّلاً، وتعليمه ما هو فيه من ضرورة الكدح ثانياً، وتبليغه لما فيه الكدح وكيفيّته ثالثاً، وتوجيهه إلى قبلة الكدح وكيفيّة استقبالها رابعاً، وتأييده في سرعة الكدح والسبقة فيه خامساً، وجعل ذلك المُؤيّد معه وفي صحابته في الكدح والبلوغ إلى المقصد سادساً، وإشرافه عليه في الوفود على المقصود ــ وهو الله الذي إليه تصير الأُمور ــ سابعاً، كلّ ذلك برنامج النبوّة، وسيرة الرسالة، وسنّة الولاية.

وليس للنبيّ ــ أيّ نبيّ كان ــ الاختلاف مع شيء من هذه الأُمور الهامّة، وليس للرسول ــ أيّ رسول كان ــ التخلّف عن شيء منها، بأن يدعو الناس إلى طريق أُخرى عدا الصراط المستقيم، الذي استقرّ عليه فيض الله وفعله

---

١ ــ الإنشقاق: ٨٤/٦.

وحكمه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1]، أو يدعوهم إلى مقصد آخر أو مقصود كذلك، كما قال سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَٰبَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾[2]؛ لدلالتها على أنّه ليس لأحد من الأنبياء أن يدعوا الناس إلى نفسه؛ لأنّه نفسه كسائر الناس في السير والصيرورة، والكدح إلى لقاء الله، وهذا هو التساوق في التكوين والتشريع، والتطابق بين الشريعة والخلقة؛ لأنّ ملاكات الدين هي الموجودة في نفس الأمر المحيط بما في الفطرة والطبيعة، وأحكام الشريعة تهدي إلى تلك الملاكات، وتوجب الوصول إليها، ومن هنا يصحّ أن يقال: إنّ كلّ نبيّ لو تمثّل بصورة كتاب تدوينيّ لتصوّر بصورة كتابه الذي آتاه الله، وكلّ كتاب سماويّ لو تمثّل بصورة إنسان تكوينيّ لتصوّر بصورة نبيّه الذي أرسله الله بذلك الكتاب.

والسرّ في ذلك كلّه هو أنّ الإنسان لا يدبّره ولا يديره ولا يَربّه إلاّ الله الذي خَلَقه؛ ولذا تكون دعوات الأنبياء طرّاً إلى الله على بصيرة من ربّهم: ﴿أَدْعُواْ إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾[3]، ﴿إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾[4]، ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي

---

١ ـ هود: ٥٦/١١.

٢ ـ آل عمران: ٧٩/٣.

٣ ـ يوسف: ١٠٨/١٢.

٤ ـ الرعد: ٣٦/١٣.

وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[١]، وقد شهد الله لرسوله أنّه يـدعو النـاس إلى صراط مستقيم: ﴿وَ إِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٢].

كما أنّ الله الذي بيده عقدة كلّ أمر، وزمام كلّ شيء هو أيضاً فـي مقام الفعل على الصراط المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّـي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٣].

فتبيّن أنّ الخلقة على النهج القويم الذي لا عوج لـه، وأنّ النبـوّة أيـضاً علـى الطريقة الوسطى التـي لا انحراف فيها أصلاً، وأنّ الشريعة والفطرة وكـذا الطبيعـة متطابقان، وأنّ النبـيّ خليفة الله الذي بيده زمام الخلقة، وأنّ النبـيّ يدعو النـاس فـي جميع ما تقدّم إلى الله، وإلى صراطه، وإلى الصيرورة إليه، وإلى الكدح فـي السير، وإلى الترغيب فـي لقاء الله، وأنّ النبـيّ لا يدعو النـاس أبـداً إلى نفـسه، وأنّه يعلّمهم ويدرّسهم ليكونوا علماءاً أبراراً ربّانيّين، أخياراً صدّيقين.

---

١ ـ آل عمران: ٥١/٣.

٢ ـ المؤمنون: ٧٣/٢٣.

٣ ـ هود: ٥٦/١١.



الصلة الخامسة عشر

فـي النبوّة ومعرفة النفس



إنّ أهمّ ما يقال في ضرورة البعث، وأهمّ ما تتوجّه إليه النبوّة، وأكثر ما يهتمّ به النبيّ(صلّى الله عليه وآله وسلّم) هو إثارة دفائن عقول الناس لمعرفة أنفسهم وما لها وما عليها؛ لأنّ النفس هو الركن الأصيل من الإنسان، لأصالتها وتبعيّة البدن، حيث إنّه آلة لها، وخاضع لديها، ومرتبط بها، ومعتمد عليها، ولا يقوم ولا يقعد إلاّ بإرادتها وإشرافها وتدبيرها وإدارتها، ويكون فلاحه بفلاحها، وطلاحه بطلاحها، والله سبحانه ينادي في غير موضع من القرآن الحكيم: بأنّ النبوّة لتزكية النفوس، كما أنّها لتذكية العقول، بتعليم الكتاب والحكمة، وتضحية النفوس المسوّلة، والأمّارة بالسوء بالترغيب والترهيب.

وذلك لا يتيسّر إلاّ بمعرفة النفس الإنسانيّة، وأنّها مجرّدة عن المادّة والمدّة، وأنّها تلاقي ربّها، وأنّ مسيرها إلى لقاء الله هو ذاتها، ولا طريق خارج عنها، إذ العقيدة المصيبة والخُلق الحسن والعمل الصالح كلّ ذلك من شؤونها الباطنة والظاهرة، ولا شيء منها بخارج عن هويّة النفس، فالمسلك إلى لقاء ربّها هو أوصاف النفس وأعمالها، كما أنّ السالك إليه هو ذاتها، وأنّ الإنسان بالنفس يصير خلقاً آخر مغايراً لسائر ما له الحياة، كأنواع الحيوان، حيث قال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾[1].

---

١ ـ المؤمنون: ١٥/٢٣.

أمّا تجرّد النفس الإنسانيّة، وأنّها لا تزول بموت البدن، وأنّها باقية بدونه، وإن كان لها بدن آخر مناسب لها بعد الموت إلى أن يلحق بها بدنها الأصلي في المعاد؛ فلدلالة قوله سبحانه: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1] على ذلك، إذ لو كان الإنسان هو هذا الهيكل المادّي المحسوس فقطّ، ولم يكن له نفس مجرّدة عن البدن لما كان لحياته حين موت البدن وجه معقول، ولا لرزقه واستبشاره معنىً مقبول؛ فللإنسان نفس لا تموت بموت البدن، وبهذا المضمون آية أُخرى، وهي قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ﴾[2]، ولا مجال لتوهّم اختصاص ذلك بالذي يقتل في سبيل الله؛ لأنّه وإن كان للقتيل في سبيله رزقٌ يخصّه، وبشارةٌ تختصّ به، ودرجةٌ لا ينالها غيره ونحو ذلك.

وأمّا الإشتراك في أصل الإنسانيّة الجامعة له ولغيره من مصاديق النوع الواحد، فلا محيص عن قبوله.

وممّا يدلّ أيضاً على أنّ لغيره نفساً مجرّدة مصونة عن الزوال بموت البدن، الخطاب: النبويّ لمن أُلقي في قليب بدر مع قوله(صلّى الله عليه وآله وسلّم) لمن

---

١ ـ آل عمران: ١٦٩/٣ ـ ١٧١.

٢ ـ البقرة: ١٥٤/٢.

تعجّب من خطابه، مع هؤلاء المشركين الذين قتلوا في سبيل الأصنام، وأهرق دمهم في طريق الأوثان: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»[١].

ويمكن أيضاً أن يستشهد لتجرّد النفس بالآيات الدالّة على أنّها تلاقي ربّها وتناجيه في الصلاة وما إلى ذلك؛ لأنّ الله سبحانه مجرّد عن جميع ما له دخل في المادّة، فلو لم تكن النفس الإنسانيّة مجرّدة عن ذلك فكيف يمكن لها أن تلاقيه، وتصعد إليه، وتتكلّم معه في المناجاة والدعاء، نعم للتجرّد درجات، وللنزاهة عن المادّة مراتب، وللبراءة عن المدّة مراحل، أعلاها وأشرفها وأجلّها بما لا حدّ له ولا رسم هو للّه سبحانه.

وأمّا المسلك الوحيد إلى لقاء الله فيدلّ عليه قوله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٢]؛ لدلالته على أنّ الله ألزم كلّ واحد من الإنسان أن يلزم نفسه ولا يفارقها؛ لأنّ كلمة «عليكم»، بمعنى ألزموا، أي اعتصموا بحبل النفس، وامتسكوا عروتها، وسيروا على درجاتها، ولا تفارقوها أبداً.

والسرّ في ذلك هو أنّ النفس مفطورة على التوحيد وعلى الإقرار بما هو حقّ من ربوبيّة الله وعبوديّتها، حيث قالت: «بلى» حين قال الله لها: «ألست بربّك»، وأنّ النفس مستوية الخلقة؛ لأنّ الله الذي خلقها قال في حقّها: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾[٣]، ثمّ فسّر تسويتها، وبيّن استواء خلقتها بأن كانت ملهمة

---

١ ـ بحار الأنوار ١٩: ٣٤٦، مسند أحمد ١: ٢٧.

٢ ـ المائدة: ١٠٥/٥.

٣ ـ الشمس: ٧/٩١.

بالفجور والتقوى، وأفاد بأنّ هذا الإلهام كان حقّاً؛ لأنّ الملهِم هو الله الذي لا يعزب عن عمله مثقال ذرّة، والملهَم هو النفس التي فطرت على التوحيد، ولا حجاب كان هناك حتّى يحجب، فالفاعل تامّ الفاعليّة، والقابل تامّ القابليّة، والحجاب مرتفع، والمانع مطرود، فلابدّ من تحقّق العلم الفارق بين التقوى والفجور في فطرة النفس.

ثمّ وعد الله سبحانه الذين اعتصموا بهذا الحبل المتين الذي نسجته الآية والرواية المأثورة من عدل القرآن الحكيم الذي لا يفارقه أصلاً، كما لا يفارقه القرآن أبَداً، ولن يفترقا حتّى يردا على النبيّ الأعظم الحوض، بأنّه إن دام على نفسه الملهمة وراعى التقوى وجانب الطغوى، بأن يجعل له فرقاناً يميّز به بين الحقّ والباطل، والصدق والكذب، والخير والشرّ، والحَسَن والقبيح، حيث قال تعالى: ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِن تَتَّقُواْ اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿...مَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[2]؛ لأنّ المستفاد من أمثال هذه الآية هو أنّ الله الذي لا يخلف وعده دعى الناس إلى التقوى تحصيلاً للميز بين الباقي والفاني، وبين المعقول والموهوم، وبين إلهام الملك ووسوسة إبليس، ممّن اتّقى وصدّق بالحسنى مؤمناً يجعل له من أمره يسراً، في العلم الصائب، والعمل

---

١ ـ الأنفال: ٢٩/٨.

٢ ـ الطلاق: ٢/٦٥ و٣.

الصالح إلى أن يبلغ مرتبة الطمأنينة، راضياً بقضاء الله وقَدَره، ومرضيّاً للّه أعماله وأحواله، فإذا اطمئنّ يناديه ربّه، ويرجعه إلى ما لديه، ويأذن له بالرجوع إليه سبحانه، حتّى يدخل في عباده الخاصّين به، ويدخل جنّته المخصوصة له، لا يدخل في هؤلاء العباد إلاّ من هو أهله، ولا يدخل في تلك الجنّة العالية إلاّ من هو أهلها.

وكلّ ذلك لمن ذكر الله سبحانه، فذكره الله، ومنعه أن ينسا نفسه التي هي الطريق الموصلة إليه، ويغفل عن الملهَم بالفجور والتقوى، وأن يكسب سوءاً يرين على قلبه؛ لأنّ الذنب رَين عليه، كما قال تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[1].

ومنعه أيضاً أن يترك واجباً أو يرتكب حراماً؛ لأنّ ذلك كلّه رجز ورجسٌ، لابدّ للمبتلى بذلك أن يتطهّر، كما أنّ التعلّق بحقّ الغير قذرٌ لا محيص من الطهارة عنه، وذلك ممّا يمكن استفادته من قوله سبحانه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِم بِهَا وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2].

فبهذا وأمثاله تحصل التزكية المختصّة بالنفس التي لا تحقّق لها إلاّ بمعرفتها، أي النفس، فلابدّ لسالك طريق الامتثال أن يعرف نفسه المجرّدة، وأن لا يفارقها علماً ولا عملاً أصلاً.

---

١ ـ المطفّفين: ١٤/٨٣.

٢ ـ التوبة: ١٠٣/٩.



الصلة السادسة عشر

فـي أنّ كتاب النبوّة حقّ



إنّ النبوّة على مراتب: فبعضها بأن تكون حافظة لشريعة نبيّ أفضل، وبعضها بأن تكون مقرونة بشريعة وكتاب مستقلّ، وعلى أيّ تقدير كلّ كتاب يأتي به نبيّ من الأنبياء من ناحية الله سبحانه فهو حقّ، لا باطل فيه أصلاً، إلاّ أن يحرّفه من لا خلاق له في الآخرة ليبيعها بالدنيا، وذلك لأنّ الإنسان كما خلق مختلف اللون واللسان: ﴿وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَ ٰنِكُمْ﴾[1] كذلك خُلق مختلف التفكير والنظر، وهذا حسَن فيما تضارب الآراء؛ لأنّه يتولّد من ضرب الرأي على الرأي صوابٌ، لكن المعارف العميقة العريقة لا تعرف بسهولة، وإن تضاربت فيه الآراء، وهكذا بعض المسائل العمليّة ممّا يرجع إلى السياسة والاقتصاد والثقافة ونحو ذلك، فلابدّ من ميزان يوزن به الرأي الثاقب، ومن معيار يعرف به الرأي الصائب، ولا يوجد ذلك الميزان ولا هذا المعيار من عند مختلفي الأنظار، فلابدّ من نزوله من عند الملك الغفّار، وهو الله الذي لا يخفى عليه ما في القلوب من الأسرار، كما قال سبحانه: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَ ٰحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَـٰبَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَى صِرَ ٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2].

---

١ ـ الروم: ٢٢/٣٠.

٢ ـ البقرة: ٢١٣/٢.

فإذا كانت المسائل المختلف فيها كثيرةً، بعضها اعتقاديّة، وبعضها خُلقيّة، وبعضها فقهيّة، وبعضها حقوقيّة، سياسيّة، إجتماعيّة؛ فلابدّ وأن يكون الميزان بلحاظ المحتوىٰ جامعاً لذلك أوّلاً، ومصوناً عن الخطأ والجهل والبطلان ثانياً، وإلاّ لما كان بلحاظ المصدر إلهيّاً أوّلاً، ولما كان ميزاناً للحقّ والباطل في ذلك كلّه ثانياً، نعم إنّ الاختلاف الطارئ بعد حكم الميزان وفتوى النبيّ الذي جاء به فإنّما هو للطغوى، كما قال سبحانه: ﴿...وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيِّنَـٰتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾[1]، وحيث إنّ الكتاب الحقّ الذي جاء به النبيّ ـ أيّ نبيّ كان ـ ينطق بأنّ كلّ إنسان مسئول عن عمله، وأنّ عمله موجود بلا انعدام، وأنّه لا ينفكّ عن عامله؛ لأنّ كلّ امرءٍ بما كسب رهين، والمرتهن لا يرفع يده عن المرهون ما لم يقض دَيْنَه، فكلّ امرءٍ تحت أمارة محاسبه بما عمله، فدلّ على أنّ المختلف الباغي محكوم بقضاء الله، كما قال تعالى: ﴿...إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[2].

ثمّ إنّ الله سبحانه كما يصرّح بأنّ الميزان الذي يأتي به النبيّ ـ أيّ نبيّ كان ـ هو ما أنزله الله من دون أن يكون إيجاده من نبيّ، أو تكوينه من رسول، أو إنشائه من وليّ، ويكون أيضاً مصحوباً بالحقّ، وملبوساً به، بحيث لا يفارقه ما يصحبه، ولا ينفكّ عنه ما يلبسه؛ لأنّ مفاد قوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ هو ذلك، وكلّ ما كان بالحقّ فهو منزّه عن مزج الباطل، وشوب الخطأ، وشوك السهو،

---

١ ـ البقرة: ٢/٢١٣.

٢ ـ الجاثية: ٤٥/١٧.

فالكتاب الإلهيّ ـ أيّ كتاب كان ـ ما لم يحرّفه يد الطغيان والتعدّي فهو بنفسه حقّ بلا مريةٍ، والنبيّ ـ أيّ نبيّ كان ـ حيث إنّه يبعث بالحقّ، ويُرسل بالحقّ، وينزل عليه الكتاب بالحقّ فهو أيضاً معصوم عن خطر الخطأ، وسوء السهو، وسيّء النسيان، وما هذا إلاّ العصمة، كما ستظهر إن شاء الله.

والغرض الآن هو عصمة الكتاب النازل بالحقّ عمّا يشينه، وصيانته عمّا يهدم حجيّته، ونزاهته عمّا يحجب عن الاعتصام به، وبراءته عمّا يمنع عن الاحتجاج والتمسّك به.



الصلة السابعة عشر

فـي أنّ ميراث النبوّة كوثر لا غنى عنه



إنّ المنوّين بالتكاثر المغرورين بالعلوم الحسيّة وما لها من المنافع المادّية لا يعلمون ما هو الكوثر، ولا يحيطون بما لدى الأنبياء من العلوم النافعة في الدنيا والآخرة، وينكرون ما لا يناله الحسّ والتجربة الحسيّة، ولا يقفون على ما يَصْعد إليه العقل والتجربة التجريديّة، لأنّهم يبصرون إلى الدنيا فقط، ولا يبصرون بها ما ورائها من الآخرة؛ ولذا ﴿فَرِحُواْ بِالْحَيَـٰوةِ الدُّنْيَا وَ مَا الْحَيَـٰوةُ الدُّنْيَا فِي الأَخِرَةِ إِلاَّ مَتَـٰعٌ﴾[1].

وهؤلاء كما يفرحون بما أُوتوا من الدنيا يأسون على ما فاتهم منها، ولا عِلْمَ لهم بأنّ شيئاً من حُطام الدنيا ليس على حدّ يفرح بإتيانه، ويُوسىٰ على زواله؛ لأنّ هذا القسم من المعرفة من العلم النافع الذي يزعمونه أُسطورةً، ويكتفون بما لديهم من العلم الحسّي والتجربي، ويفرحون به، كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَ حَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[2]، والله سبحانه أفاض بقوله: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَ مَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾[3]،

---

١ ـ الرعد: ٢٦/١٣.

٢ ـ غافر: ٨٣/٤٠ .

٣ ـ النحل: ٩٦/١٦.

ولا يمكن النيل إلى الباقي بالفانـي، ولا يمكـن الـصعود إلى الـدائم بالنافـد، إنّ المؤمن المتنعّم بالجنّة يقول: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾[١].

وليس لغيره الفرحان بما لديه من العلم النافد أن يعرف الـرزق المـصون عـن النفاد أوّلاً، وأن يُؤمن به ثانياً، وأن يعمل له عملاً صالحاً ثالثاً، وأن يصل إليه بعد الارتحال رابعاً.

أمّا النبوّة، فهي مصحوبة بتعليم الكتاب والحكمة المعبّر عنها بـالكوثر المقابـل للتكاثر؛ فلذا لا مجال للعلم الـذي لا مـساس لـه بـالله تعـالى وأسمائـه الحـسنى وصفاته العليا أن يُؤدّي إلى ذلك، والنبـيّ(صلّى الله عليه وآلـه وسـلّم) وإن أمـر الناس بتعلّم العلم، ورَغّبَ بُغاته، ورهَّبَ تاركيه، وجعَل طلبه فريـضة علـى كـلّ مسلم إلاّ أنّه(صلّى الله عليه وآله وسلّم) قد بيّن أُصول العلم وخطوطـه الجامعـة بقوله: «إنّما العلم ثلاثة: آية محكمة، أو فريضة عادلة، أو سنّة قائمة، وما خلاهنّ فهو فضل»[٢]، إذ بهذه العلوم النافعة التـي هي الكوثر يعلم مـا فـي الكـون مـن المبدأ الأزلـي الذي منه العالم وإليه يصير، ومن الـوحي والنبـوّة والرسـالة ومـن الأحكام والحِكَم، ومن الحقّ والباطـل، والـصدق والكـذب، والحَـسَن والقبـيح، والخير والشرّ ممّا يرجع إلى صلاح الفرد والمجتمع وطلاحهما، فمن أعْـرَض عـن ذلك واعترض عليه وعارضه بما ينافيه فهو الذي يفرح بما لديه من العلم الحـسّي الذي لا يعرف به شيئاً من تلك المعارف أصلاً.

---

١ ـ ص: ٥٤/٣٨.

٢ ـ الكافـي ١: ٣٢، ذيل ح ١.

فكما أنّ المختال الذي ليس له قلب حتّى يعقل به، ولا سمع حتّى يسمع به، فهو فرحان بالسراب، ذهّاب إليه لرفع العطش، فإذا جائه لم يجده شيئاً، ووجد الله عنده، فوفّاه حسابه، فكما أنّ من جمع مالاً وعدّده يحسب أنّ ماله يُخْلِده، ولذا يفرح به، فكذلك من تعلّم علماً حسيّاً ودرسه أو ألّفَه، يتخيّل أنّ علمه يُخلِده، فهؤلاء يخلدون إلى الأرض ذاهلاً عن بارئها، وخاضعون للنظام المشهور غافلاً عن خالقه ومُقَدِّره.

فإذا نُزع ذلك المال أو هذا العلم عنهم، فإذا كلّ واحد منهم يَؤوسٌ كفورٌ، ومن أخلد إلى الأرض واتّبع هواه لا فارق له، يفرق به بين الكوثر والتكاثر، إذ لا تقوى له حتّى يحصل به الفرقان الموعود في القرآن[1]، ولا نفس ملهمة له بالفعل حتّى ترشده إلى ما ألهمها الله من الفجور والتقوى؛ لأنّه بأغراضه الكاسدة، وغرائزه الفاسدة قد دسّاها، فمن خاب لتدسيس النفس الملهمة ولم يتّق الله فأين له الفرقان؟!

---

١ ـ الأنفال.



الصلة الثامنة عشر

فـي ترغيب النبوّة إلى التحقيق وترهيبها عن التقليد



إنّ الهدف السامي للبعث والإرسال هو تعليم الكتاب والحكمة، فلابدّ من الترغيب إلى ما يناسبه، والترهيب عمّا يباينه، وحيث إنّ التحقيق والفحص عن الحقّ، والتحسّس عن الصدق يلائم ذلك الهدف العالي، وإنَّ التقليد والجمود على ما ورّثه السلف وتركه الغابر ينافيه؛ لذلك دعَتِ النبوّة إلى طلب العلم، ولو بخوض اللجج، وبَذْل المُهَج، ورَدَعتْ عن الجهل والسفَه، وهكذا الأمر في التزكية.

والسرّ في ذلك أنّ المترفين الذين أهمّتهم أنفسُهم ونَسوا الله، فأنساهم أنفسهم لا يُهِمُّهم إلاّ الإتراف والإسراف ليأكلوا كما تأكل الأنعام: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾[1]، ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[2].

---

١ ـ المائدة: ١٠٤/٥.

٢ ـ الأعراف: ٢٨/٧ و٢٩.

والمستفاد من هذه الآيات وأمثالها هو أنّ التقليد الجافّ والركون الجامد كما أنّه يباين تذكية العقل الحاصلة بتعليم الكتاب والحكمة كذلك ينافي تزكية النفس المتحقّقة بتهذيب النفوس المأمور به الأنبياء والمرسلون(عليهم السلام).

وحيث إنّ منشأ الإتراف ومصدر الفحشاء هو الجهل العلمي والجهالة العمليّة، اهتمّت النبوّة إلى طردهما و إزالتهما، والتنفير عنهما، والعقاب عليهما، والذمّ لهما، بأنّ ذلك كلّه ضلال وغواية، ودعوةُ الشيطان إلى عذاب السعير، وأنّه على فرض كون ما استقرّ عليه السلف حقّاً وهداية ـ مع أنّه ليس كذلك ـ يكون ما جاء به الأنبياء(عليهم السلام)أحقّ وأهدى ممّا كانوا عليه. وإليك ما يلي بعض تلك الآيات: ﴿إِذْ قَالَ لاَبِيهِ وَ قَوْمِهِ مَا هَـٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ * قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَ ءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[١]، ﴿وَ إِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَ لَوْ كَانَ الشَّيْطَـٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾[٢]، ﴿بَلْ قَالُواْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلَىٰ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ * وَ كَذَ ٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلَىٰ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ * قَـٰلَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُواْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ كَـٰفِرُونَ﴾[٣]، هذا هو الداء العضال المنوّ بعلاجه أصحاب الوحي والنبوّة، وحيث إنّ الوحي شفاء لما في الصدور من الجهل والخبل، وعلاج من السَفَه والسِفاح،

١ ـ الأنبياء: ٢١/٥٢ ـ ٥٤.

٢ ـ لقمان: ٣١/٢١.

٣ ـ الزخرف: ٤٣/٢٢ ـ ٢٤.

وإنّ النبيّ ـ أيّ نبيّ كان ـ طبيبٌ دوّارٌ بطبّه قد أحْكم مراهمه وأحمى مواسمه يَضَعُ ذلك حيث الحاجة إليه من قلوب عمى، وآذان صمّ، وألسنة بُكم، متتبّعٌ بدوائه مواضع الغفلة ومواطن الحيرة[1]؛ لذا أوْجَبَت النبوّةُ التحقيق في العقائد والأصول الجامعة، وبعد تبيّن الرشد من الغيّ، واتّضاح أهل الخبرة في الدين الذين هم ورثة المرسلين، وكانوا صحابة سدادٍ ورشاد، وأصحاب صدقٍ ووداد، أباح للذين لا يقدرون على الاجتهاد أن يراجعوا إلى هؤلاء الثقات التقاة، ويسئلوهم لكونهم أهل الذكر ما يحتاجون إليه من أحكام العباد، صوناً عن الضياع والفساد.

١ ـ قبس من نهج البلاغة: خطبة ١٠٨.

الصلة التاسعة عشر

فـي أنّ النبوّة طاردة للهوى



إنّ الموجود المادّي المحض أو المؤلّف من المادّي والمجرّد الموجود في دار التزاحم، ممنوٌّ بالعداوة والبغضاء، إمّا من الجانبين كما هو كذلك بين الشقيّين، أو من جانب واحد كما هو بين السعيد والشقيّ؛ لأنّ المؤمن العادل لا يظلم غيره، ولا يغصب حقّه، وإن ظلمه الفاجر وتعدّى على حدّه، وإنّما الظالم هو الفاجر والمتعدّي على حدّه، والنبيّ ـ أيّ نبيّ كان ـ لا يبغض أحداً، ولا يطرده ظلماً، لأنّه يمشي بالنور في الأرض، ويهدي من في حوزة رسالته، نعم لو زاحمه الكافر ومنعه أن يُبلّغ رسالة ربّه فحينذاك تشتعل نار المخاصمة بينهما ولكن: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾[1].

ومنشأ هذا العداء المشئوم هو أنّ الكافر ومن بحكمه متّبع هواه تِجاه النبيّ الذي لا يتّبع إلاّ الوحي؛ لأنّ الوحي لا يلائم هوى النفس، إذ الحقّ لا يجتمع مع الباطل، ولا تصالح بينهما أصلاً؛ لأنّ كلّ واحد من الخير والشرّ يطلب لوحده الاستقلال، وليس هذا الخصام كالمخاصمة الماليّة التي يمكن التصالح فيها بالمقاسمة، تنصيفاً أو تثليثاً أو نحو ذلك، بل لا يرضى الوحي إلاّ أن يصير حاكماً وحده، كما لا يرضى الهوى إلاّ أن يصير حاكماً كذلك، وهذا هو المراد

---

١ ـ المائدة: ٦٤/٥.

من قوله سبحانه: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾[1]؛ لأنّ الذين اتّخذوا إلـٰههم هواهم يَعبدونه ويطيعونه ويذبّون عنه.

ولا ميز فيه بين أنواع الأهواء وأصنافها؛ لأنّ كلّ واحد منها ضلالة، فإذا صار الهوى إلهاً حاكماً فلابدّ من الخضوع له.

وما ذكر في الآية من اليهود والنصارى تمثيل لا تعيين؛ لأنّ المشرك والكافر والمنافق كلّ واحد من هؤلاء فهو من عَبَدَةِ الهوى؛ لأنّه إلـٰههم الذي يعكفون عليه، فلا يرضون من الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) إلاّ أن يتّبع قبلَتهم وملّتهم وأهوائهم التي يعبدونها، وقد نهى(صلّى الله عليه وآله وسلّم) عن اتّباع أهوائهم: ﴿وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[2].

فكما أنّ المؤمن أينما تَوّلى فثمّ وجه الله بالقياس إليه كذلك المشرك والكافر والمنافق أينما تولّى فَثمّ الهوى لا يرى غيره؛ لأنّه أعمىٰ لا يرى نور السماوات والأرض، ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾[3]، فكما أنّ المشرك لا يتّبع إلاّ

١ ـ البقرة: ٢/١٢٠.

٢ ـ الأنعام: ٦/١٥٠.

٣ ـ المائدة: ٥/٤٩.

هواه؛ لأنّه إلـهه، كذلك الكافر بالنبوّة الخاصّة من أهل الكتاب لا يطيع إلاّ هـواه؛ لأنّه ربّه، والمنافق أيضاً كذلك: ﴿أُوْلَـٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلَـٰلَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾[1]، ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لاَّ يَشْعُرُونَ﴾[2]، إذ الضلالة المقابلة للهدى هـوىً، كما أنّ السفه المباين للعقل هوىً.

فتبيّن أنّ هدى النبوّة مقابل لهوى الضلال الجامع بين الشرك والكفر والنفاق، وأنّ النبوّة مُمْنُوّةٌ بخصومة المشرك والكافر والمنافق، وأنّ كلّ واحد من هـؤلاء لا يرضى عن النبيّ إلاّ أن يتّبع ملّته، وأنّ الله سبحانه يتمّ نوره ولو كره هـؤلاء السفهاء.

---

١ ـ البقرة: ١٦/٢.

٢ ـ البقرة: ١٢/٢.



الصلة العشرون

فـي نبوّة خاتم النبيّين(صلّى الله عليه وآله وسلّم)



إنّ الصلات السالفة كانت متكفّلة لبعض ما للنبوّة العامّة التي تعمّ كلّ نبيّ، وإن كانت لها أُصول وأحكام أُخر لا تَسَعها هذه الوجيزة، وأمّا نبوّة سيّدنا محمّد بن عبدالله الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) فهي بعد التوحيد والمعاد من الأُصول الدينيّة، والاعتقاد بها وبحقيّة جميع ما جاء به من الأحكام والحِكَم تمام محيانا ومماتنا، وكمال دنيانا وآخرتنا بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، سيّما فيما يرجع إلى التولّي والتبرّي من قبول ولاية أهل بيت العصمة والطهارة(عليهم السلام)، والبرائة من أعدائهم.

والكلام هنا في نبوّة سيّد المرسلين(صلّى الله عليه وآله وسلّم)، والذي يبحث عنه في هذه الصلة هو أنّ القرآن وحي إلهيّ، وكتاب سماويّ، بحيث يكون جميع أبعاده الثلاثة من المعنى واللفظ والتأليف بينهما من الله سبحانه، بلا دخل لأحد من الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) وغيره في شيء من تلك الأبعاد، وأنّ سيّدنا الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) تلقّاها من لدن عليّ حكيم إمّا بوسيط أو بغيره، وعلم بجميع مضامين هذا الوحي الإلهي المضلّع بأضلاعه الثلاثة، وكان معصوماً في تلك الجهات، وأميناً عليها، ومبلّغاً إيّاها، بلا أيّ تصرّف من النقص أو الزيادة في شيء من ذلك. فهنا عدّة مطالب تتلى عليكم فيما يلي:

الأوّل: حقيقة الكتاب ما هي؟

إنّ الكتاب عبارة عن مجموعة المعانـي الخاصّة والألفـاظ المخـصوصة الدالّـة عليها حسبما يتعارف بين أهل اللسان، فلو لم يكن هناك معنى، أو كـان ولكـن لم يكن هناك لفظ، أو كان ولكن لم يكن بين ذلك المعنى وهذا اللفـظ ربـط دلالـيّ متعارف بين أهله لم يصدق عليه أنّه كتاب أصلاً، أو كـان هـذا العنـوان منـصرفاً عنه، لو فرض أصل الصدق عليه، ولا مرية فـي صدق هذا العنوان على القـرآن الكريم الواجد لجميع تلك الأبعاد الثلاثة، مع مزيد بعد رابع، وهو كتابتـه وضـبطه فـي قرطاس أو غيره؛ لأنّه حين نزل من الله إلى الرسول الأعظم(صلّى الله عليـه وآله وسلّم) كان مثلّث الأبعاد، وحين كتب فـي لوحٍ ما بإملائه(صـلّى الله عليـه وآله وسلّم) بلا أيّ تصرّف فيه صار مربّعها.

والقدر المشترك بين الكتاب والكلام هو ذلـك المثلّـث الـذي إذا تحقّـق صـحّ استناده إلى مُنشِئه ومصدره، وأمّا عنوان الكاتب فأمر آخر قد يصدق علـى مـن سطره بالقلم، وإن لم يكن مصدراً له، فالمهمّ فـي صحّة استناد الكتاب إلى مبدئـه هو ذلك المثلّث المُنسجم.

الثاني: حقيقة القرآن ما هي؟

إنّ القرآن كتاب خاصّ، وكلام مخصوص، حاوٍ لما تقدّم من الأبعـاد الثلاثـة، إذ المعنى وحده ليس بقرآن، واللفظ الخالـي عن المعنى ليس بقرآن، والمعنى الـذي لا يستفاد من اللفظ واللفظ الدالّ على شيء آخر لا على المعـنى المقـصود لـيس بقرآن، بل المعنى المخصوص المطابق لدعوى النبـيّ(صلّى الله عليه وآلـه وسـلّم)

والمعرب عن دعوته، واللفظ الدالّ على ذلك المعنى المطابق والموازي منسجماً قرآن، حيث إنّ المعتبر فيه عدا المعنى المطابق هو اللفظ الذي يصلح للقرائة والتلفّظ أيضاً؛ لأنّ ما لا يُقرء ولا يتلفّظ وإن يصدق عليه المعنى إلاّ أنّه ليس بقرآن.

والحاصل أنّ القرآن كتابٌ مَقْروء، فلابدّ فيه من انحفاظ ذلك المثلّث المنسجم.

الثالث: حقيقة الكلام ما هي؟

إنّ الكلام أيضاً كالكتاب حاوٍ لما مرّ من المثلّث المنسجم؛ لأنّ المعنى المجرّد عن اللفظ ليس بكلام، واللفظ العاري عن المعنى ليس بكلام، والمعنى المنقطع عن اللفظ واللفظ الأجنبيّ عن المعنى لا يتألّفان تألّفاً مفيداً يصدق عليه الكلام لدى العقلاء، وإن أمكن صدقه عليه بلحاظ الجمود على اللفظ.

فالكلام ـ الذي يفيد فائدةً يصحّ السكوت عليها ـ لا يتحقّق بدون تلك الأبعاد الثلاثة التي منها صلوح التكلّم.

ومنها إمكان الاستماع، بحيث يكون ما لا يمكن قرائته ولا استماعه فليس بكلام، على حسب المتعارف بين العقلاء وأهل اللغة، وإن أمكن إطلاق الكتاب أو القرآن أو الكلام على بعض المعارف المخزونة في المخازن الغيبيّة أو غير ذلك مع القرينة مجازاً، أو على اصطلاح خاصّ لبعض العلوم.

ثمّ إنّ هنا عناوينَ أُخَر تناسب ما تقدّم، نحو عنوانِ القول، اللسان، العربيّ المبين، التلاوة، القراءة، الترتيل، الإستماع، السمع، السورة، الصحيفة، الحديث ونحو ذلك ممّا أُطلق على القرآن الظاهر في احتوائه على المثلّث المذكور.

الرابع: فـي بيان مبدأ الكتاب والقرآن والكلام

إنّ الله سبحانه قد وصف كتابه وكلامه المسمّى بالقرآن بأنّه نور وتبيـان لكـلّ شيء، فما كان نوراً فهو ظاهر لا سترة عليه، ومشهود لا حجاب لـه، ومـا كـان تبياناً لكلّ شيء فهو بيّن لنفسه، ومبيّن لغيره، فلا مُعَرِّفَ أجلـى منـه، ولا دليـل أدلّ منه، فهو المرجع الوحيد لبيان المبدأ الفاعلي لهـذا الكتـاب والكـلام المـسمّى بالقرآن.

ثمّ إنّ هنا آياتٍ تدلّ على أنّ الذي بين أيدينا ونحن بين يديه هو كتاب، وأنّـه من الله، فصحّ القول بأنّه كتاب الله، ولا سهم لغيره تعالى فـي شـيء مـن أبعـاده الثلاثة أصلاً:

منها: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْـكِتَـٰبُ لاَ رَيْبَ فِيـهِ﴾[1]، ﴿تِلْـكَ ءَايَـٰتُ الْكِتَـٰبِ الْحَكِيمِ﴾[2]، ﴿كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُ﴾[3]، ﴿تِلْكَ ءَايَـٰتُ الْكِتَـٰبِ﴾[4] إلى غير ذلـك من الآيات الكثيرة.

ومنها: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَـٰبَ بِـالْحَقِّ وَ إِنَّ الَّـذِينَ اخْتَلَفُـواْ فِي الْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾[5]، ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَـٰبَ بِالْحَقِّ﴾[6]، ﴿هُوَ الَّذِي أَنـزَلَ

---

١ ـ البقرة: ٢/٢.

٢ ـ يونس: ١٠/١.

٣ ـ هود: ١١/١.

٤ ـ الرعد: ١٣/١.

٥ ـ البقرة: ٢/١٧٦.

٦ ـ آل عمران: ٣/٣.

عَلَيْكَ الْكِتَـٰبَ﴾[١]، ﴿إِنَّـآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَـٰبَ بِـالْحَقِّ﴾[٢]، ﴿وَأَنـزَلَ اللَّـهُ عَلَيْـكَ الْكِتَـٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْـكَ عَظِيمـاً﴾[٣] إلى غير ذلك ممّا يطول ذكره.

فهذا الذي في أيدى المسلمين المأمورين بالاعتصام به هو كتاب أوّلاً، وأنزله الله ثانياً، فلا يستند في شيء من أبعاده الثلاثة إلى غير الله تعالى ثالثاً، رسولاً كان ذلك الغير أم لا رابعاً.

ثمّ إنّ هنا آياتٍ تدلّ على أنّ هذا الذي بين أيدي المسلمين هو قرآن، وأنّه ممّا أنزله الله كما تقدّم في عنوان الكتاب:

منها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْـوَمُ﴾[٤]، ﴿وَ إِذَا قَـرَأْتَ الْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالأخِرَةِ حِجَابًـا مَّـسْتُورًا﴾[٥]، ﴿وَ إِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَىٰ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا﴾[٦]، ﴿قُـل لَّـئِنِ اجْتَمَعَـتِ الإِنسُ وَ الْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْءَانِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾[٧] إلى غير ذلـك ممّا لا احتياج إلى ذكره.

---

١ ـ آل عمران: ٧/٣.

٢ ـ النساء: ١٠٥/٤.

٣ ـ النساء: ١١٣/٤.

٤ ـ الإسراء: ٩/١٧.

٥ ـ الإسراء: ٤٥/١٧.

٦ ـ الإسراء: ٤٦/١٧.

٧ ـ الإسراء: ٨٨/١٧ .

ومنها: قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ﴾[١]، ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَـٰذَا الْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾[٢]، ﴿وَمَا كَانَ هَـٰذَا الْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ﴾[٣]، ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ﴾[٤]، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[٥]، ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾[٦]، ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[٧]، ﴿الرَّحْمَـٰنُ * عَلَّمَ الْقُرْءَانَ﴾[٨]، ﴿إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾[٩]، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا الْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾[١٠]، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ تَنزِيلاً﴾[١١]، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَ ٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[١٢]، ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾[١٣]، ﴿وَكَذَ ٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾[١]، ﴿وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا

---

١ ـ البقرة: ١٨٥/٢.

٢ ـ الأنعام: ١٩/٦.

٣ ـ يونس: ٣٧/١٠.

٤ ـ الحجر: ٨٧/١٥ .

٥ ـ الإسراء: ٨٢/١٧ .

٦ ـ الإسراء: ٨٩/١٧ .

٧ ـ النمل: ٦/٢٧.

٨ ـ الرحمن: ١/٥٥ و٢.

٩ ـ الواقعة: ٧٧/٥٦ و٧٨.

١٠ ـ الحشر: ٢١/٥٩.

١١ ـ الإنسان: ٢٣/٧٦.

١٢ ـ يوسف: ٢/١٢.

١٣ ـ الإسراء: ١٠٦/١٧.

أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُ﴾[٢]، ﴿إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَ ٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٣] إلى غير ذلك ممّا لا افتقار إلى ذكره.

فتبيّن أنّ هذا الذي يهدي للتي هي أقوم قرآن أوّلاً، أي ممّا يقرء ويُسْمع، وأنزله الله ثانياً، فلا يرتبط بغير الله سبحانه ثالثاً، سواء كان ذلك الغير رسولاً أم لا رابعاً.

ثمّ إنّ هنا آياتٍ تدلّ على أنّ هذا الذي اتّخذه بعضٌ مهجوراً من الهجر، وبعضٌ مهجوراً من الهُجر ـ حيث قال من قال ويقول من يحذو حذوه: إنّ الرجل ليهجر معاذ الله ـ وبعضٌ محجوراً ـ حيث زعم من زعم ويزعم من يحتذي احتذائه ـ أنّه من أساطير الأوّلين! معاذ الله ـ هو كلام بحيث يُتلفّظ ويُسمَعُ، وأنّه كلام الله، أي ممّا أوْجَد الله سبحانه سُوَرَه وآياته وكلماته وحروفه، بلا دخل لأحد في ذلك أصلاً، وأنّ الله سبحانه عَلَّم رسوله الأمينَ جميعَ معارف القرآن من التفسير والتأويل، والظاهر والباطن، ونحو ذلك.

فمنها: قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ اللَّهِ﴾[٤]، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَـٰمَ اللَّهِ﴾[٥]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾[٦]، حيث إنّ المعهود المقطوع لديهم هو أنّ الله كلّم رسوله بالقرآن، فقال هؤلاء السفهاء: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾.

---

١ ـ طه: ١١٣/٢٠.

٢ ـ فصّلت: ٤٤/٤١.

٣ ـ الزخرف: ٣/٤٣.

٤ ـ التوبة: ٦/٩.

٥ ـ الفتح: ١٥/٤٨.

٦ ـ البقرة: ١١٨/٢.

والحاصل من هذه الآيات هو أنّ الذي يعتقد به المسلمون هو كلام أوّلاً، وأنّه ممّا كلّم به الله ثانياً، وأنّه لا يستند إلى متكلّم غير الله ثالثاً، سواء كان ذلك الغير رسولاً أم لا رابعاً.

ثمّ إنّ هنا آياتٍ تدلّ على أمر الله رسولَه(صلّى الله عليه وآله وسلّم) بالقراءة والتلاوة والترتيل، وعلى أنّ الله تعالى ألْقى إليه قولاً ثقيلاً، وعلى أنّ الله جعَل القرآن بلسان عربيّ مبين، وعلى أنّ الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) يتلوا صحفاً مطهّرة، وعلى التحدّي بحديث مثل القرآن، وعلى نحو ذلك، ولا ريب في ظهور هذه العناوين في اللفظ، وأنّه ممّا أنزله الله، فمنها: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[١] ﴿اقْرَأْ وَ رَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾[٢]، ﴿وَاتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾[٣]، ﴿اتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَـٰبِ﴾[٤]، ﴿كَذَ ٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَ رَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلاً﴾[٥]، ﴿وَ رَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً * إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾[٦] ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَ ٰنًا عَرَبِيًّا﴾[٧]، ﴿وَ كَذَ ٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾[٨]، ﴿إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَ ٰنًا

---

١ ـ العلق: ١/٩٦.

٢ ـ العلق: ٣/٩٦.

٣ ـ الكهف: ٢٧/١٨.

٤ ـ العنكبوت: ٤٥/٢٩.

٥ ـ الفرقان: ٣٢/٢٥.

٦ ـ المزمّل: ٤/٧٣ و٥.

٧ ـ يوسف: ٢/١٢.

٨ ـ الشورى: ٧/٤٢.

عَرَبِيًّا﴾[۱]، ﴿هَـٰذَا كِتَـٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾[۲]، ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾[۳]، ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهاً﴾[٤]، ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَـٰدِقِينَ﴾[۵] إلى غير ذلك من الآيات الدالّة على أنّ ألفاظ القرآن كمعانيها والتأليف بينهما من صنع الله سبحانه لا غير، وأنّ الرسول كان يتلقّى المعاني وكذا التلاوة والقراءة والترتيل بتعليم الله تعالى؛ لأنّه كان أُمّيّاً لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان، وما كان(صلّى الله عليه وآله وسلّم) يتلو من قبله من كتاب، ولا يخطّه باليمين، فمن أين يتيسّر له من عنده أن يُعبِّر عن تلك المعارف الغيبيّة التي بعضها يرجع إلى الأسماء الحسنى والصفات العليا، وبعضها يرجع إلى خَبايا المعاد ممّا لا عَيْن رأَت، ولا أذن سمعت ولا خَطَر على قلب بَشَر بألفاظ خاصّة تدلّ عليها بلا نقص ولا زيادة، وليس إعجاز القرآن هو أنّ الكلام مستند إلى شخص الرسول، بل هو فعل الله سبحانه ـ لأنّ قوله فعله ـ، الظاهر من لسان رسوله الذي لا ينطق عن الهوى، إنْ هو إلاّ وحيٌ يوحىٰ.

وممّا يُؤيّد أنّ القرآن بتمامه لفظاً ومعنىً من الله، هو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾[٦]، ﴿وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُ ءَاعْجَمِيٌّ

---

۱ ـ الزخرف: ۴۳/۳.

۲ ـ الأحقاف: ۴۶/۱۲.

۳ ـ البيّنة: ۹۸/۲.

۴ ـ الزمر: ۳۹/۲۳.

۵ ـ الطور: ۵۲/۳۴.

۶ ـ النحل: ۱۶/۱۰۳.

وَ عَرَبِيٌّ...﴾[١]، لظهور هذه التعبيرات فـي أنّ الله سبحانه جعل القرآن عربيّاً لا أنّه تعالى أَلْقَى المعانـي البحتة الخالية عن الألفاظ إلى قلب الرسول(صـلّى الله عليـه وآله وسلّم)، ثمّ إنّه(صلّى الله عليه وآله وسلّم) جعل لها مـن عنـد نفـسه ألفاظـاً خاصّة، كما أنّ قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى﴾[٢] مُشْعِر بأنّ الله سـبحانه أَقْـرَءَ رسوله بألفاظ خاصّةٍ أُمر(صلّى الله عليه وآله وسلّم) بقرائتـها، وذلـك كلّـه إنّمـا يتحقّق فـي مدار الكلمات، وحيث إنّ الإقراء من الله سبحانه فالألفـاظ المقـروّة كانت منه تعالى.

فتبيّن أنّ القرآن بجميع معانيه وألفاظه وما كان بينهما مـن التـأليف إنّمـا هـو بإنشاء الله سبحانه، بلا دخل لأحدٍ فـي شيء منها، وأنّ الرسول الأعظـم(صـلّى الله عليه وآله وسلّم) تلقّاه بجميع أبعاده من الله العلـيّ الحكـيم، بواسـطة أو بـلا واسطة، وأنّ الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) قـد بَلّغـه كمـا أمـر إلى الناس من دون أيّ تصرّف فيه.

وأنّ ما قيل فـي كون القرآن مخلوقاً فلا مساس له بكونه مختلقاً لغـير الله؛ لأنّ المراد به أنّه هل هو مخلوق حادث، أم كلام إلهيّ قديم، مع القطع بعدم دخالة أحدٍ فيه نظير غيره ممّا اختلف فـي حدوثه وقدمه.

فلو قيل: مثلاً إنّ العالم حادث، فليس معناه أنّه أحْدَثَه أحـدٌ غـير الله تعـالى، والغرض أنّ البحث عن حدوث القرآن وقِدمه أجنبـيّ رأساً عـن كـون ألفاظـه لغير الله معاذ الله.

---

١ ـ فصّلت: ٤١/٤٤.

٢ ـ الأعلى: ٨٧/٦.

قال الزمخشري في طليعة الكشّاف: «الحمد للّه الذي أنزل القرآن كلاماً مؤلّفاً منظّماً، ونزّله بحسب المصالح منجّماً، وجَعَلَه بالتحميد مُفْتَتحاً، وبالاستعاذة مختتماً، وأوحاه على قسمين»[1]، ثمّ إنّ المسلمين سيّما علمائهم وأبرارهم ومُفَسّريهم حيث ثبت لهم ما هو الحقّ من أنّ ألفاظ القرآن الكريم كمعانيه وحيٌ إلهيٌ لم يمسسها يدٌ ولا لسانٌ بشريّ أصلاً، وأنّها ليست كالأحاديث التي معانيها إلهامٌ سماويّ، ولكن ألفاظها نبويّة أو علويّة أو حَسَنيّة أو حُسينيّة أو نحو ذلك، وأنّ الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) سمع تلك الألفاظ القرآنيّة وتلقّا معانيها من لدن عليم حكيم، وعرف تأويلها وتنزيلها وتفسيرها وأحكامها وحِكَمها من لدنه تعالى، اهتمّوا بمعرفة تلك الألفاظ وضبطها وقراءتها وترتيلها وتجويدها وتلاوتها بصوت حسن وكتابتها بأحسن ما يمكن، ولم يأتوا بشيء من ذلك في ألفاظ الأحاديث وإن كانت حجّةً في الفقه والاُصول والأخلاق والحقوق، ويكفيك شاهداً لما اُشير إليه من الاهتمام ما أفاده السيّد حيدر بن عليّ بن حيدر العلوي الحسنيّ الآملي(قدّس سرّه)، حيث قال: «إنّ أكثر القرّاء ذهبوا إلى أنّ سور القرآن بأسرها مائة وأربعة عشر سورة، وإلى أنّ آياته ستّة آلاف وستّمائة وستّون آية، وإلى أنّ كلماته سبعة وسبعون ألفاً و أربعمائة وسبع وثلاثون كلمةً، وإلى أنّ حروفه ثلاثمائة آلاف وإثنان وعشرون ألفاً وستّمائة وسبعون حرفاً، وإلى أنّ فتحاته ثلاثة وتسعون ألفاً ومائتان وثلاثة و أربعون فتحةً، وإلى أنّ ضمّاته أربعون ألفاً وثماني مائة وأربع ضمّات، وإلى أنّ كسراته تسعة وثلاثون ألفاً وخمسمائة وستّة وثمانون كسرةً، وإلى أنّ تشديداته تسعة

---

١ ـ كشّاف ١: ص ٣.

عشر ألفاً ومائتان وثلاثمائة وخمسون تشديدةً، وإلى أنّ مدّاته ألف وسبعمائة وواحد وسبعون مدّةً، وإلى أنّ همزاته ثلاثة آلاف ومائتان وثلاث وسبعون همزةً، وإلى أنّ ألفاته ثمانية والأربعون ألفاً وثلاثمائة وإثنان وسبعون ألفاً، وكذلك إلى آخر الحروف إلى أن ينتهي إلى ثمانية وعشرين حرفاً...»[1]، ورواه الفيض الكاشاني(قدّس سرّه) أيضاً في الوافي[2].

فكما لا يصحّ جعل القرآن عِضين بقبول بعض آياته، ونكول بعضها الآخر، كذلك لا يصحّ تعضيتُه وَجَعْله عِضةً عضةً بقبول كون معانيه من الله، ونكول كون ألفاظه منه تعالى، إذ القرآن كلّه منه تعالى.

---

١ ـ التفسير المحيط الأعظم ٢: المقدّمة الثانية، ص ٤٠٢.

٢ ـ الوافي ٩: ص ١٧٨١، مطبعة مكتبة أمير المؤمنين.

الصلة الحادية والعشرون

في أنّ القرآن الكريم كلّه حقّ

إنّ القرآن كما تقدّم[1] نور وتبيان، فمن أراد أن يعرف أنّه حقّ محض أو يتطرّقه البطلان (معاذ الله) فلابدّ أن يرجع إليه، كما أنّه معجزة إلهيّة، والإعجاز يَلْقَفُ الباطل، سحراً كان أو غيره؛ لأنّ الحقّ نور ومعه لا مجال للظلام، كما أنّه لا مجال للّيل إذا جاء النهار.

والذي يستفاد من هذا النور والتبيان بعد الرجوع إليه هو أنّه كتاب لا ريب فيه[2]، وأنّه هدىً للناس بلا مرية، وأنّه يهدي للتي هي أقوم بلا شكّ، وأنّه شفاء ورحمة للمؤمنين بلا ترديد، وأنّه أُنزل بالحقّ[3] أي مصحوباً بالحقّ، أو ملبوساً بلباسه، وأنّه لا عِوَج له وفيه، وأنّه مبارك إلى غير ذلك من النعوت الدالّة على صيانته عن شوب الخطأ، وشَوْكِ السهو، ولَوْثِ الباطل، كما قال سبحانه: ﴿وَ اللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَ هُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾[4]، ﴿لاَّ يَأْتِيهِ الْبَـٰطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[5]، ﴿قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِينًا﴾[6]، والدليل على كونه برهاناً ونوراً هو أنّ متكلّمه وقائله الله الذي لا

---

١ ـ المائدة: ١٥/٥، والنحل: ٨٩/١٦.

٢ ـ المتّخذ من سورة «البقرة: ٢/٢».

٣ ـ المتّخذ من سورة «فاطر: ٣١/٣٥».

٤ ـ الأحزاب: ٤/٣٣.

٥ ـ فصّلت: ٤٢/٤١.

٦ ـ النساء: ١٧٤/٤.

يعزب عن علمه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء، فهو عليم محض لا سبيل للجهل إلى علمه أصلاً، وما كان ربّك نسيّاً، فهو متذكّر صرف، لا مجال للسهو ولا للنسيان إليه أبداً.

والرسول الذي تلقّاه أتى به وبلّغه الناس، كريم، أمين، معصوم عن الدخل والتصرّف، وعن السهو والنسيان، كما أنّه منزّه عن العصيان ومبرّءٌ عن الافتراء.

فهو يدور مدار البرهان الذي أنزله الله، والحقّ الذي أرسله به بلا عَسْف ولا حَيْفٍ، وبلا ضِنّةٍ ولا هوى، حيث قال الله سبحانه ووَصَفَه ثبوتاً وسلباً بقضيّتين كلّيّتين لا مجال معهما للترديد، ولا وقع معهما لأيّ ريبٍ:

أمّا القضيّة الموجبة الكلّيّة، فهي مستفادة من قوله سبحانه: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾[١]، أي ليس ببخيل أصلاً في إبلاغ ما أُوحي إليه، وغير شحيح أبداً في إعلام ما علّمه الله، ولا ضِنّةَ له في إفشاء الغيب الذي أنزله إليه من المعارف الدينيّة، فجميع ما أُوحي إليه فقد بَرَزَت منه(صلّى الله عليه وآله وسلّم) إلى الناس بلا استثناء شيء منه.

وأمّا القضيّة السالبة الكلّيّة فهي مستفادة من قوله سبحانه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[٢]، أي لا يقول في الدين ولا ينطق فيه أصلاً ما ليس منه ولا فيه، ولا ينقل عن الله ما لم يوح إليه أبداً، ولا يُخبر عنه ما لم يُعَلّمه الله، ولا يحكي عنه ما لم يُؤمر بإبلاغه، وحيث إنّ القول في الدين ممّا لم يوح إليه هوىً ـ كائناً ما كان ـ فلا شيء ممّا لم يقل الله سبحانه بصادر منه فعلاً

---

١ ـ التكوير: ٢٤/٨١.

٢ ـ النجم: ٣/٥٣ و٤.

أو قولاً أو تقريراً؛ إذ النطق الديني أعمّ من التلفّظ اللساني؛ لأنّ المعصوم(عليه السلام)الذى جعله الله أسوةً للناس وأمَرَهم بالإئتساء به تكون سيرته وسنّته حجّةً دينيّة، سواء في ذلك القول والفعل والتقرير الذي هو صنف من الفعل.

نعم كلّ ما يرجع إلى القرآن فهو ناظر بالنطق اللساني، أي اللفظ بعنوان السورة أو الآية، ولا سهم لغير الفاعل وهو الله العليم المحض، ولغير القابل وهو الرسول المتعلّم الأمين في حرم الوحي، وحريم القرآن الحكيم؛ فلذا يكون هذا الكتاب الإلهيّ حقّاً لا مرية فيه، والشاهد على نزاهة الوحي عن تطرّق الغير واستراقه هو قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ❁ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَ أَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَ أَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾[١].

وهؤلاء الذين يرصدون الوحي أن يشوبه شيء أو ينقص منه شيء ملائكة أمناء وكرام بَرَرَة، كما قال سبحانه: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ❁ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ❁ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ❁ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾[٢]، فمع هؤلاء الرَصَد لا مجال لنفوذ الغير، وأمّا هؤلاء الكرام فهم أمَناء الرحمن لا مجال لغير إرادة الله فيهم أصلاً؛ لأنّهم محفوفون بعنايته وإكرامه وحفظه، كما يستفاد من قوله سبحانه: ﴿وَ مَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَ مَا خَلْفَنَا وَ مَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[٣]؛ لدلالة هذه الآية على أنّ ما تقدّم على هؤلاء الملائكة من العلل والمبادي وما تأخّر عنهم من المعاليل والآثار وما بين السابق واللاّحق وهو أنفسهم وذواتهم كلّ ذلك للّه سبحانه، وليس لغيره تعالى سهم في شيء من المتقدّم والمتأخّر والمقارن المقوّم لذوات هؤلاء أصلاً.

---

١ ـ الجنّ: ٢٧/٧٢ و٢٨.

٢ ـ عبس: ١٣/٨٠ ـ ١٦.

٣ ـ مريم: ٦٤/١٩.

فهل هذا إلاّ عصمةٌ بالغةٌ؟ إذ لا يصل إليهم شيء إلاّ الحقّ، ولا يتحقّق في أنفسهم شيء عدا الحقّ، ولا يصدر عنهم شيء سوى الحقّ؛ إذ ذلك كلّه للّه الذي لا مجال لنسيانه أصلاً، كما لا مجال لَجهْله أو عَجْزه أو شيء من النواقص أبداً.

وحيث إنّ سلسلة الملائكة موصوفة بالكرامة والانقياد المحض للّه سبحانه فما دام الوحي في مَدارهم وحوزتهم يكون معصوماً ومنزّهاً، وعلى وصف العصمة والنزاهة ينزل إلى عرصة قلب الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم)، كما قال الله سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾[١]، ﴿وَ بِالْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ وَ بِالْحَقِّ نَزَلَ﴾[٢].

والغَرَض أنّ الملائكة الكرام الذين هم أمناء الرحمن على الوحي، معصومون من النسيان والعصيان، ولا يسبقون الله تعالى بالقول وهم بأمره يعملون، ولا يقولون إلاّ ما قاله الله، ولا يعملون إلاّ ما أمره الله، وهذا الحصر مستلزم للعصمة، كما أنّ المستفاد من قوله سبحانه في ملائكة النار هو ذلك أيضاً: ﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[٣]، وهكذا في الملائكة مطلقاً: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[٤].

فتبيّن أنّ الوحي الإلهي من لدن صدوره أو ظهوره إلى قلب الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) حقّ لا باطل فيه، وصدق لا كذب معه أصلاً.

---

١ ـ الشعراء: ١٩٣/٢٦ و١٩٤.

٢ ـ الإسراء: ١٠٥/١٧.

٣ ـ التحريم: ٦/٦٦.

٤ ـ النحل: ٥٠/١٦.

الصلة الثانية والعشرون

فـي الوحي وأقسامه

إنّ القرآن الكريم وحي إلهي، وهو ـ أي أصل الوحي ـ إمّا إلى ملك أمين حتّى يوحي إلى الرسول البشري، وإمّا إلى الرسول البشري بلا وسيط، أو من وراء حجاب أو نحو ذلك، فلزم البحث الإجمالي عن أصل الوحي حتّى يتبيّن في ضوئه أنّ الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) ـ الذي أوحي إليه القرآن ـ كيف تلقّاه، وكيف ضَبَطَه، وكيف أبْلَغه ونَشَره؟

إنّ الوحي وإن كان له مصاديق شتّى إلاّ أنّه إلقاء خفيّ، وهو ينقسم بَدْءاً إلى حقّ وصدق وخير وحَسَن، وإلى باطل وكذب وشرّ وقبيح.

والأوّل هو ما ينسب إلى الله سبحانه الذي بيده الخير، والثاني هو ما ينسب إلى الشيطان الذي بيده الشرّ وإن كان هو أيضاً مخلوقاً للّه وتحت تدبيره، وبمثابة الكَلْبِ المُعلَّم تحت إطاعة مربّيه من بعض الجهات.

ومصدر هذا التقسيم هو القرآن الحكيم، حيث أسند فيه الوحي تارة إلى الله تعالى، كما في موارد كثيرة، وأسند أيضاً إلى الشيطان الإنسيّ أو الجنّيّ، كما في قوله تعالى:﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ الاْنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالاْخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا

هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾[١]، ﴿وَإِنَّ الشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[٢].

وينقسم ثانياً إلى العلمي والعملي؛ لأنّ المُوحي إمّا أن يُلْقي العلم خفاءً أو يُلْقي العمل كذلك؛ لأنّ الإنسان ومن يحذو حذوه ممّا يعمل عن علم إمّا أن يتلقّى العلم أوّلاً فيتبعه العمل ثانياً، أو يتلقّى العَزْم على العمل أوّلاً ثمّ يتبعه العلم الذي يصلح أن يُوَجّه ذلك العمل ثانياً، وهذا في الإنسان أوضح منه في غيره؛ لأنّ للإنسان شأناً به يَعْلَم ويتفكّر ويقطَع أو يظنّ أو يَشكّ، ويرجع ذلك كلّه إلى عقله النظري، وشأناً آخر به يريد ويَعْزم ويَقْبل أو يَنْكل أو يتردّد، ويرجع ذلك كلّه إلى عقله العملي[٣].

والذي يوحي إلى الإنسان ـ أي يُلْقي إليه خفيّاً ـ إمّا أن يلقي إليه ما يرجع إلى الجزم العلمي، أو يلقي إليه ما يرجع إلى العزم العملي، وكلّ واحدٍ منّا ـ عادلاً كان أم فاسقاً ـ يجد من نفسه هذين الصنفين من الوحي؛ لأنّ المؤمن العادل تتنزّل عليه الملائكة وتُبَشِّروه بزوال الخوف والحزن جزماً أو عزماً، والكافر الفاسق الأفّاك الأثيم يتنزّل عليه الشياطين: ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ﴾[٤] كذلك، أي جَزْماً علميّاً ليجادل النبيّ، أو عَزْماً عمليّاً

---

١ ـ الأنعام: ٦/١١٢ و١١٣.

٢ ـ الأنعام: ٦/١٢١.

٣ ـ وللعقل تفسير آخر، ولعلّه هو المشهور، لا مجال هنا لطرحه.

٤ ـ الشعراء: ٢٦/٢٢٣.

ليفجر، والوسوسة أيضاً نوع من الإيحاء الشيطاني، سواء كان راجعة إلى المغالطة العلميّة والشكوك النظريّة والشبهة الفكريّة، أو راجعة إلى الكفر والفسوق والعصيان من الشهوات العمليّة؛ لأنّ الذي يُوسوسُ في صدور الناس من الجِنّة والناس خَنّاسٌ في نفسه، فكيف لا يكون إلقائه الجزم أو العَزم خَنْساً وخفاءً؟!.

والشيطان ليس له في نفسه أن يَظْهر بنفسه، وأن يُظْهر علمه، أو إرادته إلاّ بعد الاحتناك، كما أوْعد وقال: ﴿لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[1].

والاحتناك هو السيطرة على الحَنَك، كما هو للراكب المُهَيْمن على مركوبه يحتنكه ما شاء وكيف شاء وإلى ما شاء، فحينئذ يظهر ـ الشيطان ـ له آمراً؛ لأنّه مولاه، وهو أي الكافر الفاسق عبده وتابع له قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلاَّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾[2].

وللكلام في وحي إبليس وأقسام إيحائه إلى أوليائه مجال آخر، والمهمّ هنا هو بيان وحي الله وأقسام إيحائه إلى عباده الصالحين، وهكذا إلى غيرهم من المخلوقين.

أمّا الوحي العلمي والإيحاء الشهودي الذي يكون القرآن منه فهو المقصد الأسنى لكن نُؤخّره يسيراً لنقدّم بعض أنحائه العمليّة، وحيث إنّ الإنسان قد يعلم شيئاً بالصلاح والفلاح ولكن لا يُقْدِم عليه، وقد لا يعلم ما هو الصلاح، وعلى

---

١ ـ الإسراء: ٦٢/١٧.

٢ ـ الحج: ٤/٢٢.

كلا الفرضين قد يوحى إليه أمر قُدْسي، له مساس مستقيم بالإرادة والعمل والعزم على ما لم يتصوّره قبل ذلك أصلاً، أو كان مردّداً فيه عملاً.

فهذا العمل القلبي أي الإرادة والعزم والنيّة والإخلاص وما إلى ذلك ممّا يرجع إلى عرصة العمل وساحة الفعل الجانحي إنّما هو في قبال العمل الجارحي.

إنّ الإيحاء العزمي والوحي العملي قد يكون متوجّهاً إلى النبيّ(صلّى الله عليه وآله وسلّم) ـ أيّ نبيّ كان ـ، وقد يكون منحدراً إلى وصيّ نبيّ أو وليّ آخر من أوليائه الصالحين، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾[1]، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾[2]، ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَ وَحْيِنَا﴾[3]؛ لأنّ تعليم كيفيّة صنع الفلك وحي علميّ، والعزم على إيجاده وحي عمليّ، ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾[4]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَ لاَ تَخَافِي وَ لاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَ جَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[5]؛ لأنّ

١ ـ الأعراف: ١١٧/٧.

٢ ـ الأعراف: ١٦٠/٧.

٣ ـ المؤمنون: ٢٧/٢٣.

٤ ـ الشعراء: ٦٣/٢٦.

٥ ـ القصص: ٧/٢٨.

إعلامها ـ أمّ موسى(عليه السلام) ـ بالرّد إليها بعد بلوغه حدّ الرسالة، وإن كان وحياً علميّاً إلاّ أنّ العزم على الإلقاء في البحر وحي عملي يَصْحبه الحقّ ويصحب هو الحقَّ؛ لذا كان مُورِثاً للطمأنينة، وموجباً لزوال الخوف والحزن عن قلبٍ لولاه لأصبح فارغاً.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَ جَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَٰتِ﴾[1]؛ لأنّ الموحىٰ به هنا هو الفعل لا الحكم والنبأ الغيبي وما إلى ذلك ممّا يرجع إلى العلم، ولا سترة في أنّ الأُمور النفسانيّة لا تخلو عن الشعور؛ لأنّها مجرّدة، والمجرّد شاهد وحاضر وظاهر، لكن بين تلك الأُمور الشاهدة في النفس فرق أيضاً، إذ ما يرجع منها إلى الجزم غير ما يرجع إلى العزم.

وينقسم الوحي ثالثاً إلى تكوينيّ وتشريعيّ، وللتكويني أنحاء، وللتشريعي أصناف، والمراد من الوحي التكويني هو أن يريد الله سبحانه أن يرزق علماً وجزماً أو يُلقى عملاً وعزماً بحيث لا يعرف مبادئه وعلله وعلائمه كما تقدّم شطر منه.

ومن هذا القبيل هو إيحاء الله تعالى إلى النحل أن يتّخذ من الجبال بيوتاً ومن الشجر وممّا يعرشون، ثمّ تأكل من الثمرات، فتسلك سُبُل ربّها ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه، فيه شفاء للناس[2].

---

١ ـ الأنبياء: ٧٣/٢١.

٢ ـ المتّخذ من سورة «النحل: ٦٨/١٦ و٦٩.

وأيضاً من هذا القبيل هو إيحاء الله سبحانه حُكماً شرعيّاً وقانوناً إلهيّاً إلى رسوله، إذ التشريع ـ أي جعل القانون ـ تكوين؛ لأنّ الله سبحانه يريد أن يفعل بنفسه ذلك التشريع والجعلَ، وكلّ إرادة تعلّقت بفعل نفسه فهي إرادة تكوينيّة، وإن كان المراد هو التشريع وجعل القانون.

وأمّا المراد من الإيحاء التشريعي، أي الإرادة التشريعيّة خفاءً فهو أن يريد الله سبحانه أن يعمل المكلّف عملاً بالطوع والرغبة، وأن لا يَعْصِيه كذلك.

وهذه الإرادة التشريعيّة قد تعلّقت بفعل الإنسان المريد الذي يكون بين إرادة الله وتحقّق ذلك العمل إرادة الإنسان متخلّلة؛ فلذا قد تقع وقد لا تقع، فيصير هو ـ أي الإنسان ـ مطيعاً تارة، وعاصياً تارة أُخرى، فيكون الإيحاء إليه مُؤيّداً له مُوَفِّقاً إيّاه.

والغَرَض كما أنّ إرادة الله تعالى قد تتعلّق بإيجاد شيء في الخارج كالأرض والمطر، وقد تتعلّق بإيجاد القانون وجعل الحكم الشرعي، وكلّ واحد منهما تكوينيّة لتعلّقها بفعل الله سبحانه، وقد تتعلّق بإيجاد عمل في الخارج بإطاعة المكلّف، بحيث تتخلّل بين إرادة الله وتحقّق الفعل المراد إرادة العبد واختياره؛ فلذا قد يطيع وقد يعصي، ولا ضير في تخلّف المراد عن إرادة الله سبحانه في هذا الصنف المسمّي بالإرادة التشريعيّة في قبال إرادة التشريع، كذلك الإيحاء على هذا الوزان، والإيحاء المتعلّق بتشريع الحكم وجعل القانون ينحدر نحو قلب الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) ولا غير.

وأمّا الإيحاء بتحقّق الفعل المندرج تحت الحكم المشروع والقانون المجعول فهو يمكن أن ينحدر نحو قلب غير الرسول أيضاً، والمعيار هو ما تقدّم من أنّ المتعلّق إمّا فعل نفس الموحي، وهو الله، وإمّا فعل غيره.

والمهمّ من الوحي الذي يتقوّم به القرآن هو الوحي العلمي، أي الإيحاء الشهودي الذي يشهده الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) بقلبه وسمعه وبصره، والآيات الناطقة بالوحي القرآني أكثر من أن تُحصىٰ، نحو قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا الْقُرْءَانَ﴾[1]، ﴿وَ الَّذِي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَـٰبِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[2]، ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَـٰذَا الْقُرْءَانُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾[3]، ﴿وَاتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾[4]، ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَ ٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[5]، إلى غير ذلك، والوحي الهامّ القرآني هو إلقاء المعارف الغيبيّة من التوحيد والمعاد والنبوّة والأسماء الحسنى، والصفات العليا، وأنباء الأنبياء والأُمَم: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾[6]، إنّ الله سبحانه كان يوحي إلى الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) كلّ واحد من القصص اللاّزمة، بحيث كأنّه كان الرسول هناك، كما قال تعالى: ﴿وَ مَا

---

١ ـ يوسف: ٣/١٢.

٢ ـ فاطر: ٣١/٣٥.

٣ ـ الأنعام: ١٩/٦.

٤ ـ الكهف: ٢٧/١٨.

٥ ـ الزخرف: ٤٣/٤٣.

٦ ـ هود: ٤٩/١١.

كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَ مَا كُنتَ مِنَ الشَّـٰهِدِينَ * وَ لَـٰكِنَّـآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَ مَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُـواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَ لَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * وَ مَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾[١]، ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾[٢]، فالرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) يتلقّى الوحي الإلهي بأنحائه، وكفى بذلك علماً وفخراً وذخراً وشرفاً وكرماً ومزيداً.

وليس هو(صلّى الله عليه وآله وسلّم) بمنزلة الآلات والأدوات المعمولة للإذاعة والتكبير التي لا علم لها بما يعمل فيها وبها كما توهّم، وإسناد المعارف الغيبيّة إلى الله بالأصالة وإليه(صلّى الله عليه وآله وسلّم) بالرسالة أولى وأحقّ وأكمل وأتمّ وأشرف من إسنادها إلى شخصه(صلّى الله عليه وآله وسلّم)، إذ لا اعتماد إلاّ على كلام الله، ولا وثوق إلاّ بوحي الله، ولا اعتماد إلاّ على إيحاء الله، فكونه(صلّى الله عليه وآله وسلّم) رسولاً من الله وخليفة له أولى له من كونه بشخصه مصدراً لقول أو حكم؛ لأنّ حيثيّة الرسالة الملكوتيّة أقوى وجوداً من الحيثيّة البشريّة، والفرض هو أنّ القرآن من أوج عروجه إلى غاية هبوطه وحي إلهيّ يشتمل على الإيحاء العلمي والعملي ممّا يرجع إلى التكوين والتشريع، والرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) تلقّى ذلك كلّه من لدن عليم حكيم، وأسنده من البدأ إلى الختم، ومن المعنى إلى اللفظ، ومن التكوين إلى التشريع،

---

١ ـ القصص: ٢٨/٤٤ ـ ٤٦.

٢ ـ آل عمران: ٣/٤٤.

ومن الأُصول إلى الفروع، ومن الإخبار إلى الإنشاء، ومن القصص إلى المـواعظ، ومن الحكمة إلى الجدال الأحـسن، ومـن الغـابر إلى القـادم، ومـن الـسالف إلى الآنف، كلّ ذلك إلى الله سبحانه بلا مرية ولا فريةٍ، وبلا مين ولا شين.

الصلة الثالثة والعشرون

فــي عصمة الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم)



إنّ القرآن كما كان هو نوراً وتبياناً للمعارف المتقدّمة كذلك هو مُبيّنٌ لعصمة الرسول الخاتم الذي جاء به من عند ربّه الأكرم من نواحٍ شتّى؛ لأنّ الرسالة ترتبط إلى تلقّي الوحي وتعلّمه وإدراكه العميق من لدن حكيم عليم أوّلاً، وتتّصلُ بحفظه وصَوْنه وضبطه في خزانة قلبه ثانياً، وتنوط بإملائه وإبلاغه وتلاوته وتعليمه كما تلقّاه وحفظه ثالثاً. فاللاّزم أن يكون الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) معصوماً في التلقّي العريق، ومصوناً في الحفظ الدقيق، ومنزّهاً في الإعلام البليغ؛ لتتمّ حجّة الله على العباد يوم المعاد، ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَة وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَة﴾[1].

إنّ المستفاد من بعض الآيات القادمة هو عصمته(صلّى الله عليه وآله وسلّم) في جميع هذه المراحل الثلاث إلاّ أنّه لمزيد التوضيح نقول:

أمّا الذي يدلّ على عصمة الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) في المقام الأوّل ـ أي التعلّم والتلقّي بالقلب والسمع والبصر ـ فهو قول الله سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَتُلَقَّي الْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[2].

---

١ ـ الأنفال: ٨/٤٢.

٢ ـ النمل: ٢٧/٦.

إنّ العلم اللدنّي عبارة عمّا يتعلّم من لديه تعالى بلا واسطة، فإذا لم يكن هناك وسيط فلا مجال لدخالة الغير كالشيطان الذي اعترف بعجزه عن الورود في حوزة المخلَصين، فلا نفوذ له فيهم، ولا سيطرة له عليهم، ولا مشاركة له معهم في شيء من علومهم وأعمالهم؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَ بِالْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَ بِالْحَقِّ نَزَلَ﴾[١]، فلو لم يكن الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) معصوماً في التلقّي ولم يكن قلبه مَنْزِلاً حَقّاً للوحي النازل لما قال الله سبحانه في حقّه: ﴿بِالْحَقِّ نَزَلَ﴾؟! فالوحي النازل هو عين الوحي الذي أنزله الله إليه بلا تحويل ولا تبديل أصلاً.

والغَرض هو أنّ المُلقي هو الله سبحانه: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾[٢]، والمتلقّي هو الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) الذي هو من المُخْلَصين، وحوزة الإلقاء والتلقّي هو لدى الله سبحانه الذي لا مجال لنفوذ غيره هناك، فلا موقع للخطأ هنالك أصلاً؛ فلذا قال: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[٣]، وسيظهر مقام جبرئيل(عليه السلام)وكيفيّة وساطته ونسبته مع الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم).

أمّا الذي يدلّ على عصمة الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) في المقام الثاني ـ أي الحفظ والضَبْط بحيث يبقى الوحي الذي تلقّاه معصوماً عن الزيادة والنقيصة والتقديم والتأخير، وأيّ تصرّف آخر ـ فهو قول الله سبحانه: ﴿سَنُقْرِئُكَ

---

١ ـ الإسراء: ١٧/١٠٥.

٢ ـ المزّمّل: ٧٣/٥.

٣ ـ الشعراء: ٢٦/١٩٣ و١٩٤.

فَلاَ تَنسَىٰ﴾[١]؛ لدلالته على أنّ الله الذي ألقىٰ وحيه علــى قلــب الرســول وأقْرئــه بحيث يسمع وينطق بما أوحى إليه قد أخبر بعدم نــسيانه، ومــن أصْــدَق مــن الله حديثاً فلا ينساه الرسول أصلاً.

وأمّا استثناء المشيئة، حيث قال سبحانه: ﴿إِلاَّ مَا شَآءَ اللَّـهُ﴾[٢] فهــو للتأكيــد؛ لأنّ مفاده هو أنّ الله لا يسهو ولا ينسى بالذات، والرســول لا يــسهو ولا ينــسي بعناية الله سبحانه لا بالذات، ولا مجــال لتطــرّق النــسيان إليــه إلاّ مــن الله، والله ســبحانه قــد شــاء أن لا ينــسى، ومــا هــذا إلاّ تأكيــد لمــا تقــدّم مــن عــصمة الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) عن السهو والنسيان.

وما قد يتوهّم من إمكان سهو النبــيّ(صلّى الله عليه وآلــه وســلّم) فهــو مــع بطلانه يختصّ بغير الوحي القرآنــي؛ لعدم إمكان التفوّه بذلك بالقياس إلى الوحي السماوي النازل من القرآن على قلبه.

ثمّ إنّ النسيان قد يأتــي بمعنى التــرك عــن كبريــاء، كمــا فــي قولــه تعــالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾[٣]، و﴿إِنَّا نَــسِينَـٰكُمْ وَذُوقُــواْ عَــذَابَ الْخُلْــدِ بِمَــا كُنــتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٤]، ولكنّه خارج عن المقال.

أمّا الذي يدلّ على عصمة الرسول فــي المقام الثالــث ـ أي الإمــلاء والتَعلــيم والإلقاء والإبلاغ والنطق، بحيث يظهر الوحي فــي العين معصوماً عــن أيّ تغــيير

---

١ ـ الأعلى: ٨٧/٦.

٢ ـ الأعلى: ٨٧/٧.

٣ ـ طه: ٢٠/١٢٦.

٤ ـ السجدة: ٣٢/١٤.

بالتبديل والتحويل ـ فهو قول الله سبحانه: ﴿مَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[1]؛ لدلالته على أنّ الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) في مقام إظهار الوحي وإبلاغه مصون عن الهوى، أي ما يقابل الوحي.

فكلّ قول أو فعل يُنسب إلى الله وليس منه فهو هوىً، والمراد من النطق هو مطلق إظهار الوحي للتعليم والتزكية، فلا يُظْهر الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) الوحي إلاّ معصوماً فيه، كما أنّه لا يُبَيّن شيئاً من معاني الوحي، ولا يُفَسِّره إلاّ مصوناً عن الخطأ والخطيئة؛ لأنّ الله سبحانه جَعَله مُبَيّناً للقرآن، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[2]، ولا يمكن أن يجعل الجاهل أو الخاطيء مُبَيِّناً للكتاب المعصوم.

والسرّ في عصمة الرسول في الإبلاغ هو أنّ المهمّ في هداية الناس هو بلوغ حكم الله إليهم بلا نقص ولا زيادة، ومع تطرّق شيء منهما إلى حريم الوحي أو احتماله لزال الأمن، ونفد الاعتماد، وذهب الوثوق، وضاع السعي، وصار هباءً منثوراً.

وحيث إنّ الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) كان معصوماً من نواح شتّى صدق فيه ما قال الله سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[3]، ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[4]؛ إذ

---

١ ـ النجم: ٣/٥٣ و٤.

٢ ـ النحل: ٤٤/١٦.

٣ ـ يس: ٣/٣٦ و٤.

٤ ـ الزخرف: ٤٣/٤٣.

السهو والنسيان والتغيير ونحو ذلك ليس بشـيء منه على صـراط مـستقيم؛ لأنّ كلّ واحد من هذه الأمور عوجٌ وضلالٌ وغيٌّ، وأين ذلك من الصراط المستقيم؟

فتحصّل: أنّ الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) على صراط مـستقيم بالعرض، كما أنّ الله سبحانه قد اسـتقرّ فعلـه وفيـضه علـى الـصراط المـستقيم بالأصالة وبالذات: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1]؛ ولذا صار خليفته ورسـوله الأمين؛ لأنّ رسالة من هو على صراط إنّما هي على كاهل من هو على صـراط مستقيم.

---

١ ـ هود: ٥٦/١١.



تأييد لعصمة الرسول الأعظم (صلّى الله عليه وآله وسلّم)



يمكن أن تؤيّد عصمة الرسول الأعظم المستفادة من القرآن الحكيم ببيان سيّد الأولياء عليّ بن أبي طالب(عليه السلام) حيث قال في نعت النبيّ(صلّى الله عليه وآله وسلّم) : «فإنّ الله بَعَث محمّداً(صلّى الله عليه وآله وسلّم) نذيراً للعالمين، ومُهَيمناً على المرسلين»[1]؛ لأنّ الهيمنة على الأنبياء والسيطرة على المرسلين لا تحقّق من دون عصمته، إذ الناظر على المعصوم لابدّ وإن يكون معصوماً، «واعياً لوحيك، حافظاً لعهدك، ماضياً على نفاذ أمرك... فهو أمينك المأمون، وخازن علمك المخزون، وشهيدك يوم الدين، وبعيثك بالحقّ، ورسولك إلى الخلق»[2]؛ إذ الواعي للوحي والحافظ للعهد والأمين والخازن لعلم الله والشاهد يوم الدين كيف لا يكون معصوماً عن الخطأ والخطيئة؟!

«وأطهَر المطهّرين شيمةً»[3]، «فَتَأسَّ بنبيّك الأطيب الأطهر»[4]؛ لأنّ كلّ واحد من السهو والنسيان والعصيان وما إلى ذلك رذيلة، وإن كانت متفاوتة الدركات، والطاهر الطيّب عن ذلك كلّه لابدّ وإن يكون معصوماً، فكيف من هو أطيَب وأطهر؟!

---

١ ـ نهج البلاغة: الكتاب ٦٢.

٢ ـ نهج البلاغة: خطبة ٧٢.

٣ ـ نهج البلاغة: خطبة ١٠٥.

٤ ـ نهج البلاغة: خطبة ١٦٠.

«وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله، المجتبى من خلائقه، والمُعتام لشرح حقائقه، والمختصّ بعقائل كراماته، والمصطفى لكرائم (لمكارم) رسالاته، والموضّحة به أشراط الهدى، والمجلوّ به غربيب العمى»[1]، حيث إنّ الله أعلم حيث يجعل رسالته، فلا يعتام هو سبحانه، ولا يختار لتحرير حقائقه وشرحها إلاّ عالماً لا يجهل ولا ينسى، وعادلاً لا يعصى، وكريماً لا يعثر و... .

وقال(عليه السلام) في الملائكة: «بل عباد مكرمون، لا يسبقونه بالقول، وهم بأمره يعملون، وجعلهم الله سبحانه فيما هنالك أهل الأمانة على وحيه، وحَمَّلَهم إلى المرسلين ودائع أمره ونهيه، وعَصَمَهم من ريب الشبهات، فما منهم زائغ عن سبيل مرضاته...»[2]، وحيث إنّ الملائكة معصومون، والإنسان الكامل أي مقام الإنسانيّة المتجلّى في آدم تارة، وفي الخاتم تارةً أُخرى مسجود لهم، فكيف يمكن أن يكون الساجد معصوماً، والمسجود له غير معصوم؟!

وحيث إنّ الإنسان الكامل قد تَعلّم الأسماء الحسنى من عند الله تعالى، وأنبأ الملائكة إيّاها بإذن الله، وكان هؤلاء معصومين من الخطأ كما أنّهم معصومون من الخطيئة، فلابدّ وأن يكون مُعَلِّمهم بالإنباء معصوماً عنه؛ إذ لا يمكن أن يكون مُعَلّم المعصوم غير معصوم، وقد تقدّم أنّ معلّم الملائكة هو مقام الإنسانيّة المتبلور تارةً في آدمَ، وأُخرى في سيّد الأنبياء وخاتمهم(صلّى الله عليه وآله وسلّم).

وممّا يَشْهَد على أنّ جميع ما في القرآن حقّ وصدق، وأنّ الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) الذي جاء به كان معصوماً من الخطأ عدا ما

---

١ ـ نهج البلاغة: خطبة ١٧٨.

٢ ـ نهج البلاغة: خطبة ٩١.

تقدّم من قول الله سبحانه في هذا الكتاب المعجز بأنّه حقّ وصدق، هو أنّ القرآن قد صرّح بأنّ ما جاء فيه من نَبَأ السماوات وأهلها، ونَبَأ الأرض وما فيها وعليها وكذا أهلها كسائر ما جاء فيه من أنباء الرسل كلّ ذلك آيات دالّة على علم الله وقدرته، فلو كان شيء من ذلك كإخباره عن السماوات بأنّها سبع، وعن الأرض بأنّها مثلهنّ خطأ (معاذ الله) لم يكن آيةً إلهيّة؛ لأنّ الخطأ كذبٌ خبريّ، وفرية قوليّة، ولا شيء من الكذب والفرية بآيةٍ دالّة على علم الله وقدرته.



الصلة الرابعة والعشرون

فـي أنّ القرآن إلهيّ الإيجاد ومحمّدي الإبلاغ

إنّ الله سبحانه هو الحقّ المطلق الأزلـي الذي لا حدّ له ولا نهاية، وجميـع مـا عداه مظاهر أسمائه الحسنى وصفاته العليا، وإنّه تعالى بسيط محض، لا تركيب فيه أصلاً، لا من الماهيّة والوجود، ولا من المادّة والصورة، ولا من الجـنس والفـصل، ولا من الموضوع والعرض، ولا من الجزء والجزء المقداري، ولا من الجزئين غـير المقداري كالماء المركّب من الجزئين، ولا من أيّ جزء آخر يفـرض، وهكـذا هـو سبحانه بسيط محض لا مجال لشرّ التراكيب فيه، وهو التركّب من الوجود والعـدم بحيث يكون متناهياً إلى حدّ فاقداً ما عداه.

والسرّ فـي كون المتناهى مركّباً أوّلاً وفـي كون هذا التركّب شرّ أنحائـه ثانيـاً هو أنّ الموجود المحدود يَصْدُق فيه أمران: أحدهما موجب، والآخـر سـالب، أمّـا الموجب فهو قضيّة صادقة فـي حقّه، وهو أن يقال: هذا المحدود «ألـفٌ»، والمـراد من «ألف» هو ذاته التـي يجدها، وهو تمام هويّته التـي به تتحقّق، وأمّـا الـسالب فهو قضيّة أُخرى صادقة فـي حقّه أيضاً، وهو أن يقال: هذا المحدود لـيس «ب»، وهاتان القضيّتان صادقتان لا محالة، وكلّ قضيّة صـادقة فلابـدّ لهـا مـن مطـابَق يطابقه مضمونها، ومن المستحيل أن يكون مطابَق القـضيّة الـسالبة الدالّـة علـى العدم هو عين مطابق القضيّة الموجبة الدالّـة علـى الوجـود، وإلاّ لـصار الوجـود

عدماً أو العدم وجوداً، وذلك إمّا بالإنقلاب الذاتي، أو اجتماع النقيضين، وكلاهما ممتنع، فلابدّ وأن يكون هناك حيثيّتان: تكون إحديهما مطابق القضيّة الموجبة، والأُخرى مطابق القضيّة السالبة.

وحيث إنّ الحيثيّة الأُخرى التي هي المطابق للسالبة أمر وجوديّ خارج عن المصداق المفروض؛ لأنّ سلب شيء عن شيء عبارة عن فقدان شيء شيئاً، فإذا لوحظ معنى وجوديّ ولم ينطبق ذلك المعنى على شيء معيّن موجود في الخارج ينتزع منه السلب، إذ ليس للسلب مصداق عينيّ، وإلاّ لما كان سلباً، فإذا حكم بأنّ زيداً ليس ببصير فمعناه أنّ في الخارج أمراً وجوديّاً مسمّى بالبصر، ولا يوجد هذا المعنى في زيدٍ الأعمى، فيصدق فيه السلب بلحاظ هذا المقياس، والغَرض هو أنّ السلب الحقيقي إنّما هو بعدم انطباق معنى وجوديّ على هذا المورد الخاص مثلاً، فلو كان البسيط مصداقاً لسلبٍ لكان معناه أنّ هناك أمراً وجوديّاً لا يصدق معناه على هذا المسلوب منه، وهذه الحيثيّة هي غير الحيثيّة الأُخرى التي للبسيط، فيلزم أن يكون ما فرض بسيطاً مركّباً من حيثيّتين.

وأمّا كون هذا التركيب شرّ أنحاء التركيب فلأجل رجوع سائر التراكيب إلى أمر وجوديّ، وأمّا هذا التركيب فيرجع بعض خصوصيّاته إلى أمر عدميّ، ولنعرض عن هذا المبحث الذي له طور وراء الطور المعهود.

والغَرض هو أنّ الله سبحانه حقّ بسيطٌ غير متناه، وما هذا شأنه فلا يدرك إلاّ بالكنه، وحيث لا يمكن اكتناهه لغيره تعالى فلا يمكن إدراكه لأحدٍ سواه.

وما يقال: إنّ كلّ واحدٍ منّا يدرك الله بقدره وعلى سعة وجوده، فله وجه معقول في الفنّ الحكمي والعرفاني، ولكنّه على هذا البيان الساذج المكتفى

بالتمثيل بالبحر واغتراف كلّ عطشان منه على قدر قدرته غير كافٍ؛ لأنّ البحر الكبير مركّب من أُمور بعضها غير بعض، فلذا يمكن الانتفاع من ظاهره دون باطنه، ومن ساحله دون عمقه، ومن هذا الجزء دون الأجزاء الأُخَر، وأمّا البسيط البحت الأزَليُّ الذي ظاهره عين باطنه، وأوّله عين آخره، ووَصْفه عين ذاته، فلا مجال لذلك أصلاً؛ فلذا يمتنع إدراك الهويّة المطلقة مطلقاً، وكذا اكتناه أوصافها الذاتيّة، وإنّما الميسور هو إدراك وجه الله الذي أينما تُولّوا فثمّ تجدونه، وإنّما المعقول هو ظهور الله الذي هو نور السماوات والأرض، ففي جميع هذه المباحث يكون المدار هو وجه الله وظهوره، نعم منشأ ذلك كلّه ومبدأه ومصدره والظاهر في هذه المظاهر يرجع بالآخرة إلى ذات الحقّ سبحانه المعلوم إجمالاً وجوده.

فإذا تبيّن أنّ مدار البحث هنا هو ظهور الله المنقسم بالفيض الأقدس الذي ظهوره علميّ فقط لا عينيّ فلذا يعبّر عنه بالغيب أيضاً، وبالفيض المقدّس الذي ظهوره عينيّ فلذا يعبّر عنه بالشهادة، ففي محور هذا الذي هو جامع الفيضين المعبّر عنه بوجه الله العامّ يصير الإنسان الكامل المعصوم متقرّباً إلى الله سبحانه بالقربين: أحدهما قرب الفرائض، وثانيهما قرب النوافل، وحيث إنّ الرسول الأعظم محمّدبنعبدالله(صلّى الله عليه وآله وسلّم) هو الصادر الأوّل أو الظاهر الأوّل فله قرب الفرائض أعلى ممّا لغيره من الأنبياء والأولياء(عليهم السلام)، وأيضاً له قرب النوافل أعلى ممّا لغيره منهم، فالرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) محفوفٌ بالقربين ومُولّىً بالولايتين؛ فلذا يكون قيامه وقعوده في العبادات والمناسك وكذا محياه ومماته بالقول المطلق للّه ربّ العالمين.

ومن هذا شأنه فهو فانٍ في وجه الله، فلا يُسمع له همس، ولا يصدر منه فعل، ولا يظهر منه قول، بل يكون وجه الله سبحانه سمعه وبصره ويَده ولسانه، فالناطق هو الله في مقام فعله القولي، كما أنّ المستمع هو الله في مقام سمعه، وهكذا، ويؤيّده ما في القرآن الحكيم: ﴿إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّى﴾[1]، ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾[2]، إذ الحصر المستفاد من هذه الآيات يدلّ على أنّ هذا القرآن لا يستند إلاّ إلى الله؛ لأنّ الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) وإنْ دنى فتدلّى فكان قاب قوسين أو أدنى، وبَلَغَ ما بَلَغَ في القوس الصعودي كما كان هو الصادر الأوّل أو الظاهر الأوّل في القوس النزولي؛ ولذا يكون أعلى من جبرئيل(عليه السلام)، ومقدّماً عليه رتبةً، وأوسع منه وجوداً، وأولى منه بتلقّي الوحي و....، إلاّ أنّه(صلّى الله عليه وآله وسلّم) لا شأن له حسب الحصر المستفاد من تلك الآيات إلاّ الإتّباع.

ومن المعلوم أنّ القول القرآني مستندٌ إلى المتبوع لا إلى التابع، ومنسوب إلى الباقي لا الفاني فيه، ومتقوّماً بالوليّ المُفني لا بالمُولّى عليه الفاني فيه، فلو استند القرآن في مورد إلى رسول كريم مَلَكي أو رسول عظيم بشريّ، فإنّ المقصود من هذا التعبير يفهم من أخذ العنوان الخاصّ ـ أي الرسالة ـ ؛ لأنّ الرسول بما أنّه رسول لا يتكلّم إلاّ بكلام أنشأه المُرسل فقطّ، لا بكلام ينشأه هو نفسه؛ لأنّ الميز بين التابع والمتبوع محفوظ في جميع الشؤون، وإن كان هناك

١ ـ الأعراف: ٢٠٣/٧.

٢ ـ الأحقاف: ٩/٤٦.

علوم جمّة ومعارف غيبيّة علم الرسول الأعظم بكلّها وآمن بها وتخلّق بما هو الخُلقي منها وعمل ما هو الفقهي منها، وهكذا فلا مجال لقياسه(صلّى الله عليه وآله وسلّم) بآلات الاذاعة والتبليغ.

والذى لا ينبغي الذهول عنه هو: أنّ الله سبحانه لعدم تناهيه في الإطلاق الذاتي مع كلّ شيء لا بمقارنة، كما أنّه غيره لا بالمباينة حسبما أفاده سيّد الموحّدين عليّ بن أبي طالب(عليه السلام): «ليس في الأشياء بوالجٍ، ولا عنها بخارجٍ»[1]، فلا يخلو عنه تعالى شيء إلاّ أنّ الأشياء الممكنة لمحدوديّة وجودها فاقدة لبعض مراتب الوجود، وواجدة لبعضها الآخر، ولا تفاوت في هذا الأمر بين الموجود المادّي والمجرّد؛ إذ الموجود المجرّد كالروح والوحي والعصمة والولاية ونحوها وإن كان منزّهاً عن الخروج والدخول الزماني والمكاني ونحوهما من الأُمور المادّيّة إلاّ أنّ له داخلاً وخارجاً بلحاظ السعة الوجوديّة، فما هو من حوزته الوجوديّة فهو داخل في سعته، وما ليس منها فهو خارج عن سعته، ومن المعلوم أنّ الوحي الذي لم يكن الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) عالماً به ولا قادراً عليه كان خارجاً عن سعة وجوده قطعاً، وكان محتاجاً إلى المبدأ الفاعلي الذي يكون هو أيضاً خارجاً عن حوزة وجوده، وإن كان خروجه لا بالمباينة الزمانيّة والمكانيّة.

فتحصّل: أنّ الفاعل الموحي هو الله المنزّه عن الخروج والدخول المادّيّين، وأنّ القابل هو قلب الرسول المتلقّي للوحي المبرّأ عنهما، وأنّ الوحي نفسه أيضاً

---

١ ـ نهج البلاغة: خطبة ١٨٦.

مقدّس عنهما، ولكنّ الوحي خارج عن سعة وجود الرسول أوّلاً، ويلقيه الله الذي ليس هو داخلاً في سعة وجوده(صلّى الله عليه وآله وسلّم) بحيث يعدّ جزءً منه وإن كان والجاً فيه بلا مزج ثانياً، فيتلقّى الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) الوحي من خارج هويّته ثالثاً، وهذا هو المقصود من إلقائه من خارج هويّته(صلّى الله عليه وآله وسلّم)، كما أنّه أيضاً هو المراد من كون الوحي مفاضاً على جبرئيل(عليه السلام) من خارج وجوده؛ إذ الرسول مفتقر إلى الوحي، والمفتقر فاقد لما يفتقر إليه، ويستفيده من خارج هويّته.

وتبيّن أيضاً: أنّ المعجزة كالوحي تكون مستندةً إلى الله سبحانه وإنْ تَظهر على يد الرسول، فهي إلهيّة الإيجاد ومحمّديّة الإظهار.

ومن هنا يتّضح سرّ الولاية؛ لأنّها تجعل المولّى عليه تحت تدبير الوليّ وإدارته وكفالته وكفايته، فجميع شؤون الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) بما أنّه رسولٌ تحت ولاية الله سبحانه؛ حيث إنّه تعالى في مقام الفعل يكون سمع الرسول وبصره ولسانه ويده، فالفعل المعجز كالقول المعجز إلهيّ الإيجاد ومحمّديّ الإظهار، بحيث لا تأثير لأيّة مرتبة من مراتب الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) في الإيحاء ـ أي الإيجاد الوحي ـ.

نعم لمرتبته العالية سهم في تلقّي المرحلة السامية من الوحي، ولمرتبته المتوسّطة سهم في تعلّم المرحلة الوسطى منه، ولمرتبته النازلة المعبّر عنها بالإنسان المحسوس سهم في استماع المرحلة النازلة من الوحي بحيث يسمع(صلّى الله عليه وآله وسلّم) الصوت، ويرى المَلَك النازل به.

والسرّ في توازن الوحي والمستوحي وتطابق القرآن والرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) هو أنّ القرآن نازل من الله، ولكن لا كنزول المطر والبَرِد؛ لأنّ نزول القرآن بالتجلّي، كما قال سيّد الأوصياء عليّ بن أبي طالب(عليه السلام): «فتجلّى لهم سبحانه في كتابه من غير أن يكونوا رأوه بما أراهم من قدرته»[١]، فالقرآن بمنزلة الحَبْل الممدود من عند الله سبحانه إلى قلب الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) وسمعه وبصره، فلا تجافي هناك أصلاً، كما أنّ الإنسان الكامل المعصوم(عليه السلام) الذي هو مظهر الاسم الأعظم وآية للّه الذي هو عالٍ في دنوّه ودانٍ في علوّه، ومَثَلٌ تامّ للّه الذي هو رفيع الدرجات ذو العرش حاضرٌ لدى الله، ويتلقّى الوحي من لدن حكيم عليم، وحاضر أيضاً في المراحل التالية حتّى تنتهي إلى العربيّ المبين.

فالرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) أيضاً حَبل متين، وكون جامع للحضرات بلا تجافٍ أصلاً، ولكن في جميع تلك المراحل المرتبة بالإيحاء مستمعٌ واعٍ، ومتلقٍّ أمينٌ.

وهذا هو معنى الولاية؛ لأنّ المُولّى عليه يكون بجميع شؤونه (العالي والمتوسّط والنازل منها) تحت إدارة الوليّ الذي هو في مقام الفعل والظهور مجاري إدراكه وتحريكه، كما أنّ جبرئيل(عليه السلام)أيضاً كذلك في خصوص المراحل المتصوّرة في حقّه.

---

١ ـ نهج البلاغة: خطبة ١٤٧.

فتحصّل أنّ كلّ واحدٍ من القرآن والرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) بمنزلة الحبل الممدود الذي أحد طرفيه بيد الله سبحانه والطرف الآخر المحسوس يمكن أن يستفيد منه الناس، وأنّ الرسول تجلٍّ إلهيّ، كما أنّ القرآن كان تجليّاً إلهيّاً، وأنّ كلّ واحد منهما عدل الآخر، وأنّ الله أوجد القرآن، وأنّ الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) أظهره وأبلغه لا غير، وأنّ المرتبة العالية من كلّ منهما واسطة لاستفاضة المرتبة السافلة منهما؛ لأنّ هذا هو مقتضى الترتّب.

الصلة الخامسة والعشرون

فــي أنّ الرسول تابع لنزول القرآن أو العكس

إنّ الميز الفارق بين الوحي وسائر أنحاء العلم والمعرفة هو أنّ الإنسان مختار في التفكير والاستدلال، فكلّما فكّر وقدّر أتى بما هو حصيل فكره ونتاج نظره حقّاً مصيباً أو باطلاً مخطئاً، سواء في ذلك المنظوم والمنثور، كما أنّه سواء بين أن يكون ذلك المنظوم شعراً خياليّاً خالياً عن الحكمة، أو شعراً عقليّاً معدوداً منها، كما عن الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) : «إنّ مِنَ الشعر لحكمة»[1]، وسواء كان ذلك المنثور حكمةً أو كلاماً من العلوم العقليّة، أو فقهاً أو أُصولاً من العلوم النقليّة.

فهذه العلوم وما يضاهيها ممّا بيد الإنسان المفكّر عُقدته حدوثاً وبقاءً، وإنْ كانت الحسَنَة منها وهو المصيب الصادق من الله، والسيّئة منها وهو الخطاء الكاذب من المفكّر الذي يؤذيه شوك الخيال، ويُغلّطه شوب الوهم، وأمّا الوحي المعهود الذي للرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) فهو ممّا ينال الرسول، لا ممّا يناله الرسول، لأنّه عهد إلهيّ لا ينال إلاّ المعصوم الذي جَعَله الله موضع رسالته؛ ولذا يكون زمامه حدوثاً وبقاءً متّصلاً ومنقطعاً، زماناً ومكاناً من المكّيّ والمدنيّ وما قبل الهجرة وما بعدها بيد الله سبحانه ولا غير، نعم قد يتّفق لغير الرسول أن

---

١ ـ من لايحضره الفقيه ٤: ٣٧٩، ح ٥٨٠٥.

يناله إلهامٌ إلهيّ، كما يمكن أن يلقى إليه أمر شيطاني في فنّه الخاصّ ممّا مرّ ذكره، ولكنّ الوحي المعهود دائماً مسيطرٌ على الرسول، وليس في حوزة اختياره وناهيك قوله سبحانه: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَآ أَوْحَىٰ﴾[١] حيث إنّه لا يكون لرسول ولا نبيّ خيَرَةٌ من أمر الوحي، إذ العبد مفتاق محضٌ تجاه مولاه الغنيّ الصرف، سيّما إذا دنى فتدلّى وفنىَ وصَعِق لجلال وجه ربّه.

والحاصل: أنّ الوحي المعهود المختصّ بالرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) ممّا لا يماثله ولا يشابهه ولا يشاكله ولا يعادله شيءٌ من هذه العلوم الدارجة العقليّة والنقليّة التي يكون زمامها بيد الإنسان المفكّر أوّلاً، ولا حصن له يمنع عن نفوذ إبليس وجنوده ثانياً، ولا حرز له يمنع عن خروج ما هو الحقّ بالسهو والنسيان ثالثاً؛ لأنّ الوحي المعهود لا نديد له أصلاً، وهو سلطان المعارف كلّها، ولا يدانيه شيءٌ من البراهين العقليّة؛ إذ العقل في قبال النقل، وكلّ واحد منهما وإن كان معتبراً وحجّةً شرعاً؛ لأنّ أيّ واحدٍ منهما كاشف عن الحكم الإلهي وعن الإرادة والعلم الصَمَداني، لكنّ كلّ واحد منهما عُرضَةٌ للخطأ، وهذا بخلاف الوحي المعهود الذي للرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) ؛ إذ لا خطأ هنالك أصلاً؛ لأنّه بيد الله سبحانه بدأً وختماً بحيث يوجده الله أوّلاً، ويلقيه إلى قلب الرسول وسمعه وبصره ثانياً، ويَرصُده من البدأ إلى الختم لئلاّ يختطف منه شيء أو لا يزاد عليه كذلك ثالثاً، فأين هو من الشعر وإن كان حكمة؟ وأين هو من الفلسفة وإن كانت حقّة؟ وأين هو من الفقه وإن كان صدقاً؟ وأين وأين و... ؟

---

١ ـ النجم: ٥٣/١٠.

وأنت بعد التدبّر المأمور به في مثل قوله سبحانه: «يا أيّها المزمّل»، «يا أيّها المدّثّر»، «يا أيّها النبيّ»، «يا أيّها الرسول»، وبعد التنبّه في مثل قوله سبحانه غيره مرّة: «قل»، وبعد التأمّل في مثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَـَٔاوَىٰ * وَ وَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدَىٰ * وَ وَجَدَكَ عَآئِلاً فَأَغْنَىٰ﴾[١] تقطع بأنّ القرآن الحكيم لفظاً ومعنى وتأليفاً حقٌّ نزل بالحقّ على قلب الرسول الأعظم وسمعه(صلّى الله عليه وآله وسلّم)، كما رأى المَلَك النازل به ببصره.

نعم جَعْل الأُمّي الذي لم يكن يعلم ما الكتاب ولا الإيمان إنساناً كاملاً عالماً بجميع العلوم التي تحوم حوم الأسماء الإلهيّة وفائقاً على الملائكة المقرّبين وإعطائه الكوثر وما إلى ذلك ممّا لا يخطر على قلب بشرٍ عاديٍ معجزةٌ في نفسه، كما أنّ القرآن معجزة بحياله، فاحتسابهما معاً تضاعف في الإعجاز المعبّر عنه «بالنور على النور».

---

١ ـ الضحى: ٩٣/٦ ـ ٨.



الصلة السادسة والعشرون

فــي كيفيّة مظهريّة الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) للأخذ والإعطاء

إنّ الله سبحانه فوق التمام أي جامع لجميع الكمالات الوجوديّة التـي لا حـدّ لها ولا نهاية لها بالذات، ومعطٍ كلّ ذي حقّ وحدٍّ حقّه وحدّه، سواء فـي ذلـك الموجود الناقص والمكتفي والتامّ، وقد أُشير إلى شطرٍ من أحكام الأقسام الأربعـة للوجود سالفاً، وإنّ الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) بلحاظ كونـه أوّل الصوادر أو أوّل الظواهر فـي القوس النزولـي واجد لجميع ما هـو حقّـه وحـدّه بإيجاد الله سبحانه له وإعطائه إيّاه، وهنالك لا زمان ولا مكان ولا غيرهمـا مـن القيود الوسطى أو النازلة التـي بعضها من عالم المثال وبعضها من عالم الطبـع، وإنّ الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) لكونه تجلّياً أعظم حـسبما ورد فـي دعاء ليلة المبعث، فهو مظهر الاسم الأعظم الإلهـي، وإنّ الاسـم الأعظـم جـامع لجميع الأسماء الحسنى والصفات العليا، وإنّ مظهره أيضاً مظهر لجميع تلك الأسماء الحسنى، وإنّ الرسول الأعظم كغيره من المخلوقات ممكن بالإمكـان الفقـري إلى الله تعالى، وإنّ الفقر ذاتيّ للمخلوق بمعـنى عـين هويّتـه، لا بمعـنى عـين ماهيّتـه لاعتباريّتها، كما أنّ الغنا ذاتيّ للخالق بمعنى عين هويّته المطلقة، لا بمعـنى الـذاتي المعهود فـي الكلّيّات الخمس؛ لنزاهته تعالى عنها وبرائته سبحانه منها.

وكما أنّ غنا الله ليس بمعنى ذات ثبت له الغنا، فكذلك فقر المخلوق ليس بمعنى ذات ثبت له الفقر، إذ لو كان الفقر الوجودي لازماً لذات المخلوق كلزوم الزوجيّة

للأربعة لزم أن لا يكون المخلوق في متن هويّته فقيراً؛ لتأخّر اللاّزم عن الملزوم، وإنّ الذاتي لا يختلف ولا يتخلّف، ففقر الرسول الأعظم كفقر غيره باقٍ لا يفنى، ودائم لا يزول، فسواء في ذلك الحدوث والبقاء، وإنّ الفقير الذاتي لا حول له ولا قوّة له إلاّ بالله سبحانه، فبحوله وقوّته يقوم ويقعد ويعقل ويتخيّل ويتوهّم ويحسّ ويتحرّك، وإنّ القول بأنّه لا حول ولا قوّة إلاّ للّه كلام جبري جزاف أبطله العقل والنقل، كما أنّ القول بأنّه لا حول ولا قوّة للّه كلام تفويضيٌّ مُموّهٌ سَخّفه الدليلان وسَفّهَه البرهانان المعقول والمنقول.

فمظهريّة الرسول الأكرم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) للاسم الأعظم الجامع لحقائق جميع الأسماء الحسنى التي منها الأخذ والإعطاء ـ حيث إنّ الله معطٍ كما أفاده قوله سبحانه: ﴿الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[١]، وأنّه سبحانه آخذٌ كما أفاده قوله تعالى: ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَ يأْخُذُ الصَّدَقَـٰتِ﴾[٢] مفتقرة إلى الله سبحانه بلا ريبٍ، كغيره من المخلوقات، ولا ميز في هذا الأصل الجامع بين الممكنات أصلاً؛ إذ كلّ منها بعين الله وإذنه التكويني يُوجَد ويُوجِدُ، وإن كان بينها تفاوت عظيم في الإذن التشريعي؛ لأنّ بعضها مؤمن وبعضها كافر، وبعضها يأتمر بالأمر التشريفي وينتهي بالنهي التشريعي، وبعضها ليس كذلك، وبعضها نافع للناس، وبعضها ضارّ، كما أنّ بعضها قريب من الله، وبعضها بعيد منه، مع أنّ الله سبحانه أقرب إلى الكلّ من حبل وريده، وأنّه تعالى يحول بين المرء وقلبه، مؤمناً كان أو كافراً.

---

١ ـ طه: ٢٠/٥٠.

٢ ـ التوبة: ٩/١٠٤.

فعلى المحقّق أن يُعطي حقّ كلّ مطلب ويميّز أوّلاً بين الإذن التكويني العامّ وبين الإذن التشريعي الخاصّ.

وثانياً: بين الرحمة الرحمانيّة المطلقة التي وسعت كلّ شيءٍ، والرحمة الرحيميّة التي لا تنال الكافر والمنافق والظالم.

وثالثاً: بين الولاية الإلهيّة التي هي قسم خاصّ من الرحمة الرحيميّة التي لا تنال أيّ مؤمنٍ ولا ينالها أيّ متّقٍ؛ لاختصاصها بالأوحديّ من المؤمنين الأتقياء، وهم الأولياء الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً.

ورابعاً: بين شؤون هؤلاء الأولياء المعصومين؛ لأنّ بعض تلك الشؤون ممّا يرجع إلى الوحي القرآني، وبعضها ممّا يرجع إلى الإلهام الحديثي إلى غير ذلك ممّا يلزم الفحص البالغ عنه حتّى يعطى كلّ ذي حقّ حقّه من التحقيق.

فيلزم تبيين هذه الأُمور: أمّا الأمر الأوّل فبيانه: بأنّ ربوبيّة الله سبحانه مطلقة، وأنّ أيّ فعل وأثر من أيّ فاعل ومُؤثّر فلابدّ وأن يتحقّق بإذن الله؛ لبطلان استقلال الممكن كبطلان التفويض، وأنّ الفاعل إذا كان مكلّفاً كان مسئولاً عن فعله تشريعاً، وإن صدر منه بالإذن التكويني من الله ما لم يأذنه الله تشريعاً، كما أفصح عنه القرآن الحكيم بقوله: ﴿...وَ لَـٰكِنَّ الشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَ مَآ أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَ مَـٰرُوتَ وَ مَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ زَوْجِهِ وَ مَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ

اللَّهِ...﴾[1] لدلالته على أنّ تأثير السحر المحرّم وإضراره بإذن الله؛ حيث لا استقلال للساحر فضلاً عن سحره، فالساحر وإن كان ممنوعاً عن الإضرار تشريعاً ولكنّه مأذون فيه تكويناً، كما أنّ المشركين الذين ابتدعوا وافتروا وجعلوا من عند أنفسهم بعض الرزق حلالاً وبعضه حراماً، وقال الله تعالى فيهم: ﴿...ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾[2]، كذلك فهم لعدم الميز بين الإذن التكويني والتشريعي غالطوا وخلطوا بين الحقّ والباطل، وقالوا: ﴿...لَوْ شَآءَ اللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلاَ ءَابَآؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ...﴾[3] حيث إنّهم زعموا أنّ الله بقدرته المطلقة على كلّ شيء لو لم يمنع عن شيء تكويناً فقد رضي به وأَذِنَ في ارتكابه تشريعاً؛ فلذا جعلوا الإشراك والتشريع ممّا شاءه الله تشريعاً.

والغَرَض أنّ الإذن على قسمين، وأنّه لا تلازم بينهما؛ لاختصاص الإذن التشريعي بالنافع المحلّل، وعدم اختصاص الإذن التكويني به، وأنّ النبيّ والرسول والوليّ والمؤمن التقيّ يفعل ما يفعل بالإذن التكويني، وأنّ المشرك والكافر والمنافق والفاسق الشقي أيضاً يفعل ما يفعل بالإذن التكويني.

والميز بين الفريقين هو وجدان الإذن التشريعي في الأوّل، وفقدانه في الثاني، ومصير الأوّل إلى الجنّة، والثاني إلى النار.

---

١ ـ البقرة: ١٠٢/٢.

٢ ـ يونس: ٥٩/١٠.

٣ ـ الأنعام: ١٤٨/٦.

وأنّ الشجرة الخبيثة التي تخرج في أصل الجحيم تؤتي أُكلها الذي لا يبقي ولا يَذَر كلّ حين بإذن ربّها، كما أنّ الشجرة الطيّبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أُكلها كلّ حين بإذن ربّها، والميز بينهما هو الطيب والخبث.

وأنّ النبيّ والمتنبيّ كلّ واحد منهما يؤتى أُكله كلّ حين بإذن ربّه تكويناً مع كون النبيّ مأذوناً تشريعاً والمتنبيّ ممنوعاً كذلك ـ أي تشريعاً ـ.

وأمّا الأمر الثاني، فبيانه: بأنّ للّه سبحانه رحمةً رحمانيّة وسعت كلّ شيء، سواء كان طيّباً أو خبيثاً، طاهراً أو قذراً، جيّداً أو رديئاً، مؤمناً أو كافراً، جنّة أو ناراً؛ إذ لكلّ واحد منها وجود ولا موجِد إلاّ الله سبحانه، ولكلّ منها بقاء ولا مبقي إلاّ الله، ولكلّ منها رزق ولا رازق إلاّ الله، وهكذا، وقد صرّح القرآن الحكيم بسعة رحمته تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[1]، ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً﴾[2].

وبأنّ للّه سبحانه أيضاً رحمةً رحيميّة خاصّة لا سهم لغير المؤمن فيها، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰئِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَـٰتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾[3]؛ لأنّ تصلية الله تعالى على المؤمنين وكذا تصلية ملائكته بإذنه عليهم لإخراجهم من الظلمات إلى النور رحمة خاصّة لا تنال غير المؤمن ولا ينالها غيره؛ فلذا قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ

---

١ ـ الأعراف: ١٥٦/٧.

٢ ـ غافر: ٧/٤٠.

٣ ـ الأحزاب: ٤٣/٣٣.

الْمُحْسِنِينَ﴾[١]، وظاهره التحديد، وله مفهوم دالّ على بعدها عن غير المحسن وبعد غيره عنها، وبأنّ الرحمة المطلقة التي تَسَعُ كلّ شيء لا مقابل لها، وأنّ الرحمة الخاصّة التي تختصّ بالمؤمنين لها مقابل وهو العذاب العاري عن الرحمة الخاصّة، كما قال سيّد الموحّدين عليّ بن أبي طالب(عليه السلام)في وصف جهنّم: «دارٌ ليس فيها رحمةٌ، ولا تُسمَعُ فيها دعوةٌ»[٢] حيث إنّ العذاب خالٍ عن الرحمة الخاصّة وإن كانت تلك الدار محفوفةً بالرحمة العامّة، كما قال(عليه السلام): «هو الذي اشتدّت نِقْمَتُه على أعدائه في سعةِ رحمته»[٣].

وأمّا الأمر الثالث، فبيانه: بأنّ الله سبحانه لرحمته الرحيميّة يكون وليّاً لمن تولاّه وآمن به، وبجميع ما جاء منه، وأتمر بأوامره، وانتهى عن نواهيه، ولم يخرج عن نواحيه، كما قال سبحانه: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَـٰتِ إِلَى النُّورِ﴾[٤]، وقال في حقّ الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) : ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَـٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّـٰلِحِينَ﴾[٥]، ولا سهم لغير المؤمن في هذه الولاية، لأنّها رحمة خاصّة بالمؤمنين، كما قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ الْكَـٰفِرِينَ لاَ مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾[٦]، وإن كان الله سبحانه بلحاظ

---

١ ـ الأعراف: ٥٦/٧ .

٢ ـ نهج البلاغة: كتاب ٢٧.

٣ ـ نهج البلاغة: خطبة ٩٠.

٤ ـ البقرة: ٢٥٧/٢.

٥ ـ الأعراف: ١٩٦/٧.

٦ ـ محمّد: ١١/٤٧.

الرحمة الرحمانيّة المطلقة مولى الكلّ، كما يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَ رُدُّواْ إِلَىٰ اللَّهِ مَوْلَـٰهُمُ الْحَقِّ وَ ضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾[1].

وكما أنّ للنبوّة مراتب وللرسالة درجات حسبما يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَ لَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً﴾[2]، وقوله سبحانه: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّـهُ﴾[3]، كذلك للولاية مراحل؛ لأنّها باطن النبوّة والرسالة؛ حيث إنّ كلّ نبيّ ورسول وليٌّ، وإن لم يكن كلّ وليّ نبيّاً أو رسولاً.

والفضيلة إمّا متقابلة أو متعالية، والفضل المتقابل بين الأنبياء والرسل(عليهم السلام) هو أن يكون لهذا النبيّ أو الرسول مثلاً فضيلة ليس لذلك النبيّ أو الرسول وبالعكس، فهنا تفاضل متقابل يتميّز كلّ منهما عن شقيقه بفضيلة تختصّ به.

والفضل المتعالي بينهم هو أن يكون الفضل من جانب واحد لا من جانبين، بأن يكون هذا النبيّ أو الرسول أفضل من ذلك النبيّ أو الرسول، بحيث يكون واجداً لفضل لا يجده الآخر، وهذا الفضل المتعالي موجب للميز الإحاطي؛ لأنّ الأعلى يمتاز عن العالي ولا عكس، حيث إنّه ليس للعالي شيءٌ يتميّز به عن الأعلى، ولم يكن ذلك الميز له ـ أي للأعلى ـ بل الأعلى لوجدانه الميز الزائد يتميّز بنفسه عن العالي أوّلاً، ويميّزه هو ـ أي الأعلي ـ عن نفسه ثانياً، فالعالي

---

١ ـ يونس: ٣٠/١٠.

٢ ـ الإسراء: ٥٥/١٧.

٣ ـ البقرة: ٢٥٣/٢.

يتميّز عن الأعلى بالأعلى لا بنفسه؛ لأنّ هذا هو المعيار الفارق بين التمايز العَرْضي والميز الطولي.

والكلام في الفضل الولائي المتقابل والمتعالي أيضاً كذلك، ولا خفاء في أنّ الكلام بعد تحقّق النصاب اللاّزم في هؤلاء الذين اجتباهم الله واصطفاهم وأعْتامَهم لشرح حقائقه، حيث إنّ التمايز في الفضل لا في الأصل؛ فلذا أمر الله تعالى الناس بأن يؤمنوا بهم جميعاً، ولا يفرّقوا بينهم بقبول بعضٍ ونكول بعضٍ، حسبما يستفاد من قوله سبحانه: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَـٰئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[١].

وليعلم أنّ التفضيل قد يكون في الكتاب الذي ينزّله معهم، وقد يكون في الإعجاز، وقد يكون في المحاجّة مع اللدود والعنود، وقد يكون في الجهاد مع ألدِّ الخصام، وقد يكون في كيفيّة الإيحاء، وما إلى ذلك من الشؤون.

فمن تولّى الله سبحانه وتولاّه الله تعالى وصار وليّاً له تكفّل جميع علومه الصائبة وأعماله الصالحة، كما تقدّم نزرٌ من حديث قرب النوافل، فعليه ليس لشجرة النبوّة إلاّ ثمر الرسالة، ولا أثر للرسول بما أنّه رسول إلاّ تلْقي ما يُلْقيه إليه الله تعالى، واعتقاده ما تلقّاه، والتخلّق بما هَذَّبه الله، والائتمار بما أَمَره الله به، والإنتهاء عمّا نهاه الله عنه، ثمّ إبلاغ ما أُمِر بتبليغه، ونشر مآثر وحيه وآثار إلهامه، وليس شيءٌ من ذلك إلاّ إظهار ما أدركه بقلبه وسمعه وبصره، ولا يستند

---

١ ـ البقرة: ٢/٢٨٥.

شيءٌ منه إلى الرسول استناد الفعل بالفاعل؛ لأنّ فاعل ذلك كلّه هو الله سبحانه، ومنشؤه ومصدره ومبدأه هو الله ولا غير، إذ مقتضى الفناء هو أنّ الفاني لا أثر له إلاّ تلقّي المعارف الجمّة والأُصول الغيبيّة وما إلى ذلك ممّا أُشير إليه آنفاً، وكفى بذلك فخراً.

ولا يصحّ قياس الرسول بما أنّه رسول بالشجر الذي يثمر حيناً ولا يثمر حيناً آخر، وقد يثمر صحيحاً وقد يثمر مريضاً، وكان إثماره بعنوان المبدأ القريب، وكان استناد الإثمار إلى الله بعنوان المبدأ البعيد، حسبما قرّر في موطنه من العلل الطوليّة؛ لأنّ للولاية حَرَماً خاصّاً لا يصل إليها من هو ليس من أهلها.

فمن علم أنّ كمال المولّى عليه الفاني في وليّه أن يكون مستمعاً واعياً بقلبه وقالبه ومن قرنه إلى قدمه ومن ملكوته إلى ملكه ومن عرشه إلى فرشه لا يُسند شيئاً من الوحي القرآني إلى الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم)، سواء في ذلك معانيه وألفاظه والتأليف التي بينهما.

وإيّاك أنْ يلتبس عليك الأمر المائز بين التوحيد الأفعالي الذي يناله الفاني ويناله التوحيد، وبين الجبر الأشعري المنكر للاختيار الذي هو بين الجبر والتفويض.

والحاصل أنّ الموجود المجرّد التامّ الذي يعبّر عنه بالملأ الأعلى جميع شؤونه فانيةٌ في شأن الله سبحانه.

وأنّ الفاني لا أثر له أصلاً؛ لأنّ مقتضى الفناء هو الاتّباع ولا غير.

وأنّ الفاني ينال البهاء والجمال والجلال والعظمة والنور وسائر الأسماء المأثورة في النصوص المعتبرة معصوماً، وكفى بذلك ذخراً.

وأنّ الفانـي لا يُولّد شيئاً، ولا موضوعيّة له أصـلاً؛ لأنّ مقتـضى الفنـاء هـو الرسالة لا التوليد ولا الموضوعيّة.

وأنّ الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) قرآن ناطق، كمـا أنّ القـرآن الكـريم رسول صامت، ولا سهم للقرآن أصلاً إلاّ إظهار ما تكلّمه الله معـصوماً، وكـذا لا سهم للرسول إلاّ إظهار ما أرسله الله به.

وأنّ الإتّحاد إنّما يتصوّر فـي المقام الثالث، وهو وجـه الله وظهـوره، لا فـي المقام الأوّل والثانـي، أي لا فـي مقام الهويّة المطلقـة البحتـة المعبّـر عنـها بمقـام الذات ـ إن صحّ التعبير عن هنالك بالمقـام ـ، ولا فـي مقـام اكتنـاه الـصفات الذاتيّة؛ لأنّها عين الذات، بخلاف المقام الثالث الذي هو الخارج عن الذات القـائم به المعبّر عنه بوجه الله.

وأنّ اتّحاد المتحصّلين محال، بل لابدّ فيه من أمرين: أحدهما بالفعـل، والآخـر بالقوّة، وهذا فـي حوزة الطبيعة، أو أمرين: أحدهما باقٍ، والآخر فانٍ، وهذا فـي حوزة التجرّد التامّ المعبّر عنها بما فوق الطبيعة.

وأنّ الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) الفانـي فـي وجـه الله، بـل لعلّه وجه الله من وجهٍ لا أثر له إلاّ الوعي والإنصات والتلقّي والضبط بلا تبـديل ولا تحويل.

وأنّ الرسالة ليست إلاّ النطق بالوحي الذي وعاه ولا غير؛ ولذا صحّ القول خطابـاً للرسول الأعظم: «وما نَطَقت إذ نطقت ولكنّ الله نطق» على شاكلة قوله تعالى: ﴿وَمَـا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾[1]، مع ما بينهما من الميز الدقيق أيضاً.

١ ـ الأنفال: ١٧/٨.

وأنّ جميع جوانح الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) كجوارحه مشمولة لهذا الأصل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وأنّ إسناد الفعل إليه(صلّى الله عليه وآله وسلّم) وجعله فاعلاً مولّداً للوحي ينافي فنائه؛ إذ الفاني مطيع محض وقابل صرف للباقي الذي إليه ينتهي الأمر.

وأنّ نزول القرآن على قلبه وسمعه وبصره، وأنّ جريانه على لسانه ليس إلاّ الرسالة الأمينة ولا غير، وكفى بذلك شرفاً أن لا ينطق إلاّ بما أنزله الله على قلبه وسمعه وبصره، وأجراه على لسانه.

فهل هذا إلاّ التوحيد الخالص الذي لا اشتراك للنبيّ فيها؛ لأنّ الباقي هو الواحد، والفاني هو الموحّد، والطوع المحض في التلقّي بجميع شؤونه والإلقاء في جميع أُموره وسنّته وسيرته هو التوحيد، ولا مقام أرفع من هذا، ولا بيان أوفى منه، ولا كلام أقرب إلى ما نطق به القرآن الحكيم من هذا؛ إذ المستفاد من هذا الكتاب الذي يهدى للتي هي أقوم ليس إلاّ هذا، فللّه الحمد ربّ الوحي والنبوّة والرسالة والولاية وربّ العالمين.

وأمّا الأمر الرابع، فبيانه: بأنّ الله تعالى رفيع الدرجات ذو العرش العظيم، فكما أنّ للنبوّة والرسالة والولاية مراتب كذلك لنبوّة النبيّ(صلّى الله عليه وآله وسلّم) المشخّص ورسالته وولايته أيضاً درجات، ولكلّ درجة منها حكم يخصّها، وأعلى تلك المراحل إنّما هو للوحي القرآني حسبما تقدّم، وأمّا سائر أنحاء الوحي من الحديث القدسي والروائي وغيرهما في النوم أو اليَقظَة فيمكن أن يكون بإلقاء المعنى المجرّد عن اللفظ، وتخيير الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) المعصوم في بعض الجهات الثلاث المارّة في اختيار الألفاظ

والتأليف بينها وبين تلك المعاني المتلقّاة بالوحي والإلهام بلا نقص ولا زيادة في المقصود.

والمهمّ هو التنبّه بأنّ الإنسان الكامل المعصوم المُتّسم بسمة النبوّة والرسالة الذي يكون قوله وفعله وتقريره السكوتي حجّةً دينيّة للأُمّة الإسلاميّة يكون منزّهاً عن الجهل العلمي والجهالة العمليّة والخطأ والخطيئة في أيّ شيء ممّا يرجع إلى الدين بحيث يوجب زوال اعتماد الأُمّة وإطمئنانهم وركونهم إلى ما يُسمَع منه أو يُؤثَر عنه، وبأنّ اللاّزم هو عَرْض ما يروى عن الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) على القرآن الكريم وسنّته القطعيّة، فإن كان مبايناً لشيء منهما فهو مُعرض عنه، فإذا ورد ـ مثلاً ـ عن الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) أنّه: منع عاماً تأبير النخل ولم تثمر، ثمّ قال(صلّى الله عليه وآله وسلّم) : أنتم أعلم بأُمور دنياكم، فيلزم علينا عرض هذا الحديث على القرآن الحكيم، ومنه نعرف الجعل والوضع والدسّ في هذا الخبر؛ لأنّ الله سبحانه علّم رسوله بأنّ الرياح لواقح، حيث قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُ بِخَـٰزِنِينَ﴾[١] أي الرياح تلقح النبات كما أنّها تلقح السحاب، ومن المعلوم أنّ النخل الموجود في أرض الجزيرة العربيّة إنّما تثمر بالتأبير، فكيف خفي على النبيّ(صلّى الله عليه وآله وسلّم) مع علم عامّة الناس به فكيف يكونوا أعلم منه في ذلك؟!

---

١ ـ الحجر: ١٥/٢٢.

وهكذا يلزم عرض هذا الخبر على السنّة القطعيّة التي منها ما رواه الفريقان عن الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) أنّه قال: «أنا مدينة العلم وعليّ بابها»[١]، فكيف يكون هو(صلّى الله عليه وآله وسلّم) معدن العلم ومدينته مع جهله بما يعلمه عامّة الناس مع أنّ باب هذه المدينة وهو سيّد الموحّدين نادى بأعلى صوته: «سلوني قبل أن تفقدوني، فإنّي بطرق السماء أعلم منّي بطرق الأرض»[٢].

فهذا الحديث ـ تأبير النخل ـ ممّا لا يعتدّ به، سواء نَقَله الشيخ ابن عربيّ أو ابن عَجَميّ، فما جاء في الفصّ الشيثي وهكذا في الفصّ الموسوي من الفصوص لا ينبغي الالتفات إليه؛ وقد كانت هذه الأُمور من الضروريّات عند أعراب الجاهليّة ـ سواء العاكف فيه والباد ـ ولا تخفى على أدنى الناس فضلاً عن خبرائهم مع أنّ الله سبحانه مدحه وعظّمه وأشاد بذكره، حيث قال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[٣].

فهذا الحديث وما يضاهيه كلمات زِدتَ فيه نظراً زاد اتّضاح جعله ووضعه وكذبه وروزه.

إيّاك وأن تَغْتَرّ بما رواه بعض الثقات أو استشهد به بعض أهل المعرفة من أنّ كماله(صلّى الله عليه وآله وسلّم) هو تغافله عن الدنيا وزخارفها لا جهله بها وغفلته وسهوه عنها، كيف وفي القرآن الكريم غير واحدة من الآيات الشارحة

---

١ ـ الإرشاد (المطبوع ضمن مصنّفات الشيخ المفيد) ١: ٣٣، البداية والنهاية ٧: ٣٩٥.

٢ ـ نهج البلاغة: خطبة ١٨٩.

٣ ـ الحجر: ٧٢/١٥.

للنخل وثمرته، كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾[١]، ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾[٢]، ﴿وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾[٣]، ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾[٤]، ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلأَكِلِينَ﴾[٥]، فهل يبقى شكّ بعد ذلك في علم الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) بهذه الأمور المبذولة للأمّي والكاتب، البَدَوي والحَضَري؟!

---

١ ـ الأنعام: ٩٩/٦.

٢ ـ ق: ١٠/٥٠.

٣ ـ الرعد: ٤/١٣.

٤ ـ النحل: ٦٧/١٦.

٥ ـ المؤمنون: ١٩/٢٣ و٢٠.

الصلة السابعة والعشرون

فـي إطاعة قوىٰ الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم)

لعقله القدّوسي

إنّ العقل الذي به يعبد الرحمن ويكتسب الجنان وكذا العقل الـذي بـه يـدرك الحقّ والصدق والخير والحَسَن، ويُفرّق به الباطل والكـذب والـشرّ والقبـيح عـن ذلك إذا تمّت حقيقته وكمل حدّه وبَلَغ شَأوهُ لكان أمّاراً بالحُسن، كمـا أنّ الـنفس أمّارة بالسوء، فمن كان تحت أمارة العقل التامّ يأتمر بأمره ويختار ما هـو الحـسن، كما أنّ من كان تحت أمارة النفس يأتمر بأمرها ويختار ما هو السوء، فمـن كمـل عقله النظري والعملي وصار قدسيّاً يصير مصوناً عن الذهول الذي هو نوم العقل الذي يعاذ بالله منه، كما قال سيّد الأولياء عليّ بن أبـي طالـب(عليـه الـسلام): «نَعُوذ بالله من سُبات العقل، وقُبح الزَلل، وبه نستعين»[1].

والرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) هو المصداق الكامل لمن له العقل القدسي المسيطر على قواه العلميّة والعمليّة الآمر لها والحاكم عليها، وتلك القـوى تكون مؤتمرة طائعة، سواء كان فـي نومه أو يقظته أو على صورة حالته المناميّـة؛ لأنّه(صلّى الله عليه وآله وسلّم) وإن نامـت عينـه ولكـن لا ينـام عقلـه الأمّـار بالحُسن؛ فأيّ شيء تلقّاه عقله من الله سبحانه ولم يكن وحياً قرآنيّاً وخُيّر(صـلّى

---

١ ـ نهج البلاغة: خطبة ٢٢٤.

الله عليه وآله وسلّم) فـي انتخاب الصورة واللفظ الحاكي ونحو ذلك، فيأمر ذلـك العقل القدسي قواه الخياليّة والوهميّة المتأدّبة بآداب العقل المهتدية بهداه بالتـصوير الحَسَن واللفظ الحَسَن ونحو ذلك ممّا يكـون لباسـاً صـالحاً لـذلك المعـنى المجـرّد المعقول الصائب؛ فلذا يكون جميع ما يصدر منه(صلّى الله عليه وآله وسـلّم) حقّـاً وصدقاً وخيراً وحَسَناً، ويكون حجّة إلهيّة؛ إذ لا تحكى قواه إلاّ الحقّ، ولا تُصَوِّر إلاّ الخير.

كما أنّ هذه القوىٰ المنزّهة عن الغيّ، المبرّئة عن الضلالة، المُقدّسة عن العصيان كانت طائعة للّه سبحانه فـي الوحي القرآنـي، كالعقل القدسيّ المعصوم بحيـث لا يتخيّل الخيال إلاّ ما خيّلَه الله، ولا تتخيّل المتخيّلة ـ التـي هي غير قوّة الخيـال ـ إلاّ ما خيّلها الله، ولا يتوهّم الوهم إلاّ مـا وَهّمـه الله، ولا يحـسّ الحـسّ إلاّ مـا أوْجَده الله فـي مَشْعره الحسّي.

كما أنّ العقل لا يعقل إلاّ ما أعقله الله، وأنّ القلب لا يشاهد إلاّ ما أشهده الله؛ فلذا يكون القرآن كلام الله وكتابه ووحيه من لدن عليّ حكيم إلى عربـيّ مـبين، حيث إنّ الله سبحانه فـي المقام الثالث المبحوث عنه، المعبّـر عنـه بوجـه الله ـ لا فـي المقام الأوّل المعبّر عنه بالهويّة المطلقة؛ لأنّهـا غيـب بحـت، ولا فـي المقـام الثانـي المعبّر عنه بالصفات الذاتيّة؛ لعدم إمكان اكتناهها ـ حسبما تقدّم دانٍ فـي علوّه، وعالٍ فـي دنوّه[١]، ويفعل فـي الجماد والنبات والحيوان والإنسان ما يليـق بكلّ واحد منها.

---

١ ـ الصحيفة السجّاديّة: دعاء ٤٧.

والحاصل: أنّ القوى الطاهرة عن أيّ تصرّفٍ من عندها لا تحكي ولا تُصوّر ولا تتوهّم ولاتُحسّ إلاّ أمينةً في الإدراك والضبط والإرائة، سواء كانت مأمورة من القوى العالية القاهرة المهيمنة على الإنسان كما في الوحي القرآني، أو مأمورة من العقل القدسي المسيطر عليها كما في الإلهام الحديثي، وبين الأمرين: فرقانٌ غير خفيّ، وتمايزٌ جليّ.

قال صدر المتألّهين(قدّس سرّه) في كيفيّة نزول الكلام وهبوط الوحي من عند الله بواسطة الملك على قلب النبيّ(صلّى الله عليه وآله وسلّم) : «...اعلم أنّ هذا القرآن الذي بين أظهرنا كلام الله وكتابه جميعاً...إنّ سبب إنزال الكلام وتنزيل الكتاب هو أنّ الروح الإنساني إذا تجرّد عن البدن وعن وثاقه...مهاجراً إلى ربّه...إذا كانت قدسيّة شديدة القوى... فإذا توجّهت وتلقّت المعارف الإلهيّة بلا تعلّم بشريّ بل من الله يتعدّى تأثيرها إلى قواها، ويتمثّل لروحه البشري صورة ما شاهدها بروحه القدسي، وتبرز منها إلى ظاهر الكون، فيتمثّل للحواسّ الظاهرة سيّما السمع والبصر... فيرى ببصره شخصاً محسوساً في غاية الحسن والصباحة، ويسمع بسمعه كلاماً منظوماً في غاية الجودة والفصاحة، فالشخص هو الملك النازل بإذن الله الحامل للوحي الإلهي، والكلام هو كلام الله وبيده لوح فيه كتاب هو كتاب الله، وهذا الأمر المتمثّل بما معه أو فيه ليس مجرّد صورة خياليّة لا وجود لها في خارج الذهن والتخيّل، كما يقوله من لا حظّ له من علم الباطن ولا قدم له في أسرار الوحي والكتاب، كبعض أتباع المشّائين معاذ الله عن هذه العقيدة الناشئة عن الجهل بكيفيّة الإنزال والتنزيل...»[1].

---

١ ـ الأسفار ٧: ٣٣ ـ ٢٩، الموقف السابع، الفصل السابع، المطبعة بنياد حكمت اسلامى صدرا.

والمهمّ هنا هو التصريح بأنّ المسموع والمبصر والمحسوس موجود خارجي، لا ذهني ولا خيالي، بحيث صوّره الرسول أو خيّله وأوجده في ذهنه من غير أن يتلقّاه من خارج وجوده، فالرسول قابل ذلك كلّه؛ لا أنّه مولّد وفاعلٌ له، حتّى لا يكون له وجود بدون إنشاء الرسول وتصويره وترسيمه ونحو ذلك، حيث إنّه(قدّس سرّه) قد استعاذ بالله منه وتعوّذ عنه وتحاشى منه وتنزّه عنه.

إنّ البحث عن النبوّة وما لها من الشؤون على ذمّة أمرين: أحدهما يرجع إلى تبيين المبدأ الفاعلي، وثانيهما يرجع إلى تشريح المبدأ القابلي.

أمّا الأمر الأوّل: ففي الفنّ الإلهيّ الخاصّ من الحكمة الذي يبحث عن أوصاف الواجب وأسمائه من الربوبيّة والهداية ونحو ذلك، إذ لازم ربوبيّته للإنسان أن يَربّه ويسوسه ويديره ويدبّره، وحيث إنّ الإنسان موجود متفكّر ومختار، وكماله بالعلم الصائب والعزم الخالص والعمل الصالح، ولا يحصل ذلك له من عند نفسه، فلابدّ له من ربّ يدبّره ويهديه إلى صواب العلم وثواب العمل، وليس ذلك إلاّ بإنزال الكتاب وإيحائه إلى إنسان كامل معصوم أكمله الله بعنايته، وعصمه الله بلطفه.

وأمّا الأمر الثاني: ففي الفنّ الخاصّ الباحث عن النفس وأقسامها وأنحائها من النباتيّ والحيوانيّ والإنسانيّ، ثمّ النفس الإنساني من وجودها قبل البدن أو معه ومن تجرّدها حدوثاً وبقاءً أو مادّيّتها حدوثاً وتجرّدها بقاءً، ومن شؤونها العلميّة من الحسّ والخيال والوهم والمتخيّلة

والعقل النظري والعمليّة من الشهوة والغضب والعقل العملي، فإذا بلغت النفس قصواها ولم تتدنّس بشيء من قصور النظر ولا فتور العمل، وتطهّرت عن دَرَنِ النقص ورَيْن العيب، وتنزّهت عن الهَلَع من الجزع والمنع، وتطوّعت قواها العلميّة والعمليّة عقلها، وأتمّت بإمامته، وإتَسَتْ بإسوته، واقتدت بقدوته، وما عَصَت أمامها في شيء من العلم والعمل صَلُحَت لأنْ تتلقّى الوحي الإلهيّ بأحد أنحائه الثلاث من الوحي بلا وسيط، أو من وراء حجاب، أو الوحي بإرسال الرسول على نهج منع الخلوّ؛ لإمكان الجمع بين تلك الأنحاء لبعض الأنبياء(عليهم السلام)، كما جمعت لسيّدنا محمّد الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم).

ومن هنا يتّضح المراد من قول الحكماء: «إنّ كلّ حادث مسبوق بالمادّة والمدّة»، إذ الحادث الذاتي الذي له الإمكان الذاتي مسبوق بتقرّر الماهيّة في وعائها الخاصّ الخارج عن الذهن والعين، حسبما بُيّن من خروج الطرفين عن حقيقة الماهيّة، وإن كانت هي في الواقع لا تخلو عن أحد الطرفين من الوجود والعدم.

والحادث الذاتي الذي له الإمكان الفقري لم يكن مسبوقاً بشيء أصلاً؛ لأنّ الممكن بهذا الإمكان هو الهويّة لا الماهيّة، والهويّة تكون بالكون التامّ ـ أي الإيجاد ـ، لا الكون الناقص الذي له اسم وخبر، فهذا الكون أمره بسيط دائر بين النفي والإثبات، فليس مسبوقاً إلاّ بالعدم الذاتي، أي هذا الوجود ليس قائماً بذاته، لافتقاره ذاتاً، أي هويّةً إلى الواجب تعالى.

والحادث الزماني الذي له الإمكان الاستعدادي فهو مسبوق بالمادّة والمدّة، وليس للسابق إلاّ الاستعداد والقبول لا الإعطاء والفعل.

فالنبوّة بلحاظ حدوثها الزماني في زمان خاصّ ومكان مخصوص لرجل خاصّ مسبوقة باستعداد النبيّ(صلّى الله عليه وآله وسلّم)، ولكن هذا الأصل الفلسفي لا يثبت للنبيّ(صلّى الله عليه وآله وسلّم) شأناً إلاّ الاستعداد والقبول، لا الفعل والتوليد.

فتبيّن أنّ النبيّ(صلّى الله عليه وآله وسلّم) في منتهى النبوّة وعروجها لا سهم له إلاّ الفناء، والفاني لا أثر له أصلاً، وإنّما السهم لمن له البقاء، إذ الباقي يَعْلم ويُعَلّم ويَجِدُ ويُوجد، ولا وقع للقول بأنّ حكم المتّحدين واحد، إذ لا يستوي الفاني والباقي، ولا يستوي المحو والصحو، ولا يستوي الصعق والتجلّي، وحيث إنّ الفناء والمحو والصعق للسالك الصاعد، والبقاء والصحو والتجلّي لوجه الله، فجميع الكتب والكلمات له سبحانه لا لغيره أصلاً.

وقد تقدّم امتناع اتّحاد الموجودين الباقين الذين لهما الفعليّة بل هو لأمرين: أحدهما الفاني، وثانيهما الباقي، ولا استواء بينهما أصلاً؛ فلذا لا يكون استناد الأثر إليهما على السواء، مثلاً لو أُسند الوحي إلى الله سبحانه يكون من قبيل إسناد الفعل إلى الفاعل الموجِد، ولو أُسند إلى النبيّ(صلّى الله عليه وآله وسلّم) يكون من قبيل إسناده إلى القابل. فالوحي إلهيّ، بمعنى أنّ موجده هو الله تعالى،

والوحي بشريّ بمعنى أنّ قابله هو النبيّ(صلّى الله عليه وآله وسلّم) الذي يأكل ويمشي في الأسواق من حيث روحه المجرّدة الطاهرة، ولا سهم له إلاّ القبول، فمن أين يسند إلى الرسول التوليد والإيجاد والتكليم من صدره إلى ساقته؟!

فارجع البصر إلى جميع شؤون النبوّة والرسالة هل ترى من توليد وإيجاد وتكليم؟ ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَ هُوَ حَسِيرٌ﴾[١]؛ لأنّه(صلّى الله عليه وآله وسلّم) ينادي بأعلى صوته الذي ملأ الخافقَين: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾[٢]، فلا غَرْو في إسناد الشيء في الطبيعة إلى أمر طبيعي، ولا محذور في اتّصافه هناك بالطبيعة.

إلاّ أنّ الأمر في بيان كيفيّة الإسناد من أنّه إلى الفاعل أو إلى القابل مع ما بينهما من البَوْن الشاسع والفرق القاصيّ، بيد من له عقدة البرهان، وهو العقل القاطع والنقل الجازم.

وهذان الحَكَمان قد حكما بأنّ إلهيّة الوحي بمعنى الإيجاد لا غير، وبشريّته بمعنى القبول لا غير، فأين القبول من الفعل؟ وأين الاستماع من التكليم؟ وأين المخاطب من المتكلّم؟! فهل يعطي القابلَ إلاّ الفاعل؟ وهل يُعلّم المستمع إلاّ المكلّم؟ وهل يُفهم المخاطبَ إلاّ المتكلّم؟ فأين يذهبون؟ وأنّى يُتاه بهم ففرّوا إلى الله مولانا ومولاكم الحقّ.

---

١ ـ الملك: ٤/٦٧.

٢ ـ الأنعام: ٥٠/٦، ويونس: ١٥/١٠، والأحقاف: ٩/٤٦.

ومن هذا يتبيّن سرّ كون الصراط أدقّ من الشعر وأحدّ من السيف؛ لأنّ الميز بين الأمور المارّة دقيق، عميق، عريق وأنيق، والسلوك عليه بعد الفهم صعبٌ بل مستصعبٌ، بل لبعض بحرٌ عميق لا مجال للولوج فيه، وطريقٌ مظلمٌ لا يمكن سلوكه.

الصلة الثامنة والعشرون

فــي سرّ وصف الجنّة والنار بما يعرفه العرب



إنّ النبوّة والرسالة لتعليم الكتاب والحكمة ولتزكية النفوس وللتبشير والإنـذار بحيث تتعلّمها القوّة النظرية وتركن إليها القوّة العمليّة، ولا ميز فـي هـذا الهـدف السامي بين الأنبياء(عليهم السلام)، ولذا لا نفرّق بين أحد منهم، ونؤمن بجميعهم؛ لأنّهم بأجمعهم أولياء للّـه معصومون مـن الزلـل، ومصونون مـن الـدنس، ولا يتكلّمون فـي المعارف الدينيّة من عند أنفسهم أبداً.

وهؤلاء مع اختلاف ألسنة أُممهم وألوان تلك الأُمم يأتون من عند الله بما هـو الجامع للجميع، سواء كانوا فـي مشارق الأرض أو مغاربها، وفـي سهلها وجبلها ومدائنها وبواديها، وبما هو الخاصّ لقـوم دون قـوم، سـواء فـي ذلـك التمثيـل لتعريف المطالب العالية وتبيينها والتبشير لإيجاد الرجاء والإنذار لإحداث الخـوف حتّى تتبيّن تلك المطالب البرهانيّة لآحاد الناس بالتمثيل، ويتحصّل لهـم الخـوف والرجاء الزميلان المكمّلان للمعيشة الحسنى، ولعلّ هذا هـو المـراد مـن قـول الله سبحانه: ﴿وَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾[1]، وإليك نزرٌ من ذلك:

أمّا التمثيل فكقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[2]،

١ ـ إبراهيم: ١٤/٤.

٢ ـ الزمر: ٣٩/٢٩.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾[١] حيث إنّ النظام الدائر على تجارة العبيد كان معهوداً بينهم.

وأمّا التمثيل لنعم الجنّة فبالحور المقصورات في الخيام ونحوها.

وأمّا التمثيل بالمحن والمِهَن التي في النار، فبالضريع ونحوه ممّا هو المعهود في رعي الإبل.

وأمّا البيان الجامع للعربي والعجمي فكقوله سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾[٢]، ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾[٣]، ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ * وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾[٤]، ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[٥]، حيث إنّ محتوى هذه الآيات يشمل ما للعالمين من الأماني واللذائذ، كما أنّ بعض آيات النار الناظرة بأنّها لا تبقي ولا تذر، وأنّ من فيها لا يموت ولا يحي، ونحو ذلك يجمع جميع ما يحذرون.

فلا شيء ممّا يشتهيه الإنسان الشرقي أو الغربي أو يخافه العربي أو العجمي إلاّ والقرآن أفاده تصريحاً أو تلويحاً، كما أنّ الله سبحانه إذا رضي عن قوم ورضوا عنه يعبّر بآيات تدلّ على الفرح والنشط، كما أنّه تعالى إذا غضب على قوم عصوه واتّبعوا أهوائهم يعبّر بآيات تدلّ على السخط والبطش، بحيث يكون

---

١ ـ النحل: ٧٥/١٦.

٢ ـ فصّلت: ٣١/٤١.

٣ ـ الزخرف: ٧١/٤٣.

٤ ـ المرسلات: ٤١/٧٧ و٤٢.

٥ ـ السجدة: ١٧/٣٢.

اختلاف الآيات في المضمون واللفظ أمارةً على رضى الربّ وسخطه في المقام الثالث المتقدّم ـ أي مقام الفعل ـ ، ولا مساس له بالرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) أصلاً، سواء كان بلحاظ طبعه البشري في السرّاء أو الضرّاء؛ لأنّ الله سبحانه هو المتجلّي لعباده في كتابه، فتجلّيه تارةً بالجمال، وأُخرى بالجلال، وتارةً بالرحمة، وأُخرى بالغضب؛ لأنّه سبحانه أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة، وأشدّ المعاقبين في موضع النكال والنقمة.

والحاصل: إنّ اللسان العربي إنّما هو لسان الله سبحانه في ثالث المقامات أوّلاً، وإنّ سيّد المرسلين هو المخاطب القابل المتلقّى للعلوم الوحيانيّة بلا أيّ تأثير في السور والآيات ثانياً.



الصلة التاسعة والعشرون

فــي أنّ العقل والنقل خاضعان لدى الوحي



إنّ الدين عقيدة وأخلاق وفقه وحقوق وما يرجع إلى ذلك.

وإنّ منبعه الإيجادي، أي المنبع الذي يوجد هذه المعارف هو الله سبحانه بإرادته وعلمه الأزلي، بحيث لا يشاركه فيه أحد، ولا سهم لغيره تعالى فيه أصلاً، لا بالاستقلال ولا بالاشتراك ولا بالمظاهرة ولا بأيّ نحوٍ من أنحاء الدخل يفرض.

وإنّ منبعه الإظهاري، أي المنبع الذي يُظهر إرادة الله وعلمه الأزلي في تلك المعارف هو الوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وإنّ منبعه المعرفتي، أي المنبع الذي يعرف به ما جاء به الوحي، ويعلم به ما أتاه به، ويكشف به ما بيّنه الوحي هو العقل البرهاني المنزّه عن شوب المغالطة بأنحائها، والنقل المعتبر المبرّء عن شَوك الجهل والدسّ والوضع بأقسامه.

وإنّ الوحي لا يدانيه شيء من العلوم لعصمته البالغة.

وإنّ النبيّ المعصوم لا يقارنه أحد من العلماء؛ لأنّ المعصوم سلطان على الذين هم عُرضةٌ للسهو والنسيان، وممنوّ بالخطأ والخطيئة، كما أنّ الوحي سلطان المعارف وميزان العلوم.

وإنّ العقل وحده قاصر عن كشف ما جاء به النبيّ المعصوم.

وإنّ النقل وحده ناقص عنه، فمن جَعَل الدين عضين، أو زعم الوحي كذلك، أو حسب الكاشف عضةً عضةً فقد ابتلى بتعارض العقل والنقل تارةً، وبنزاع العلم والدين تارةً أُخرى، وبمخاصمة العقل التجربي والعقل التجريدي ثالثةً.

وبأنّ الدين ليس علميّاً تارةً رابعةً، وما إلى ذلك من العداء الموهوم بين رُقيّ العلم وظاهر ما يستفاد من النصوص المنقولة، غافلاً عن أنّ العقل التجريديّ منه والعلميّ التجربيّ إن نال مطلباً سامياً منزّهاً عن الفرض المحض والاحتمال الصرف بالغاً حدّ الجزم الفلسفي أو ما دونه، وهو الجزم الرياضي، أو ما نزل منه وهو الاطمينان الذي به تسكن النفس، وتُقدِم على ما لا تُقَدم عليه بدون الطمأنينة، كمعالجة الإنسان أو العروج إلى الفضاء أو نحو ذلك من الأُمور الهامّة الدائرة بين الموت والحياة، أو المرض والسلامة، أو الهلاك والنجاة، في البرّ أو البحر من تخوم الأرض إلى عنان السماء كاشفٌ عن إرادة الله سبحانه في الخلقة، كما أنّه كاشف عن إرادته تعالى في الشريعة.

فكلّ ما أدركه العقل البرهاني ممّا يرجع إلى خلقة السماء والأرض والبحار والأنهار والمعادن والأشجار، أو يرجع إلى المرض والصحّة والعلاج والتداوي، أو أيّ شيء آخر فهو كاشف عن فعل الله سبحانه، كما أنّ كلّ ما أدركه الإنسان بالنقل المعتبر ممّا يرجع إلى كتاب الله وسنّة المعصومين(عليهم السلام) فهو كاشف عن قول الله تعالى، وحيث إنّ الله سبحانه عليم بكلّ شيء، ولا يعزب عن علمه

مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء، وإنّ الله سبحانه منزّه عن السهو، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[1] فلو أُريد إسناد فعل أو قول إليه ممّا يرجع إلى الخلقة أو الشريعة فلابدّ من الجمع بين الدليلين العقليّ والنقليّ حتّى يتيسّر للسالك أن يطير بهذين الجناحين.

فبما أنّ النصوص المقدّسة تثير دفائن العقول كذلك البراهين الفعليّة تثير دفائن النقول، فهما متعاضدان لا متعارضان، ومتعانقان لا متحاربان، ومساعدان لا منازعان، فهما عينان للناظر، وأُذنان للمستمع، ويدان للباطش، ورجلان للماشي، بلا عداء ولا خصام، وبلا لجاج ولا مراء، وأنّ البرهان العقلي بمثابة التحرير للمتن النقلي، وبمنزلة الشرح له، فيكون مخصّصاً لبّيّاً للعموم، أو مقيّداً لبّيّاً للإطلاق، أو قرينةً لبّيّة لكيفيّة الاستعمال، أو مبيّناً لبّيّاً للمبهم إن كان هنا إبهام، ومفصّلاً لبّيّاً إن كان هناك إجمال، وما إلى ذلك ممّا قرّر في فنّ أُصول الفقه، مُبَيّناً هنالك أنّ العقل البرهاني له حدّ محدود، ونعت متناهٍ، ولا يقدر على إدراك الغيب، ولا ينال الأُمور الجزئيّة، ولا يعرف كيفيّة العبادة وحدودها وثغورها.

وأنّ النقل أيضاً على أنحاء: بعضها يكفي للاعتقاد، وبعضها لا يكفي؛ لأنّ بعضها للعلم، وبعضها للعمل، وما إلى ذلك من المطالب المعنونة في ذلك الفنّ الشريف الذي يتكفّل بعض مباحثه العقل، وبعضها الآخر النقل.

---

١ ـ مريم: ٦٤/١٩.

وأنّ السلب الجزئي وإن يناقض الإيجاب الكلّـي، وإنّ الإيجـاب الجزئـي وإن يناقض السلب الكلّي فـي العلوم العقليّة البحتة، ولكن إذا قيس العقـل إلى المـتن النقلي المعصوم يصير الجزئي مُخصّصاً أو مُقيّداً كما أُشير إليه آنفاً، وعليـه يـدور الفقه وأُصوله؛ لأنّ منابع المعرفة فيهما هو العقل والنقـل المنقـسم ذلـك النقـل إلى المتن القرآنـي أو سنّة المعصومين(عليهم السلام) المكشوفة تلك السنّة بالخبر تارة، وبالإجماع ـ على حجيّته ـ تارة أُخرى، وبالشهرة الروائيّـة أو الفتوائيّـة ـ علـى حجّيتها ـ تارة ثالثة، فرجع التعارض الموهوم إلى التعاضد المعقول بحمده تعالى.

الصلة الثلاثون

فــي علم الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) وصيانة

ما أتى به عن الخطأ



إنّ الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) موجود ممكن فقيرٌ إلى الله سبحانه كغيره من المخلوقات.

وإنّ أوصافه الكماليّة التي منها العلم مستفادة من الله ربّ العالمين، كما أنّ وجوده(صلّى الله عليه وآله وسلّم) منه تعالى.

وإنّ الرسول في قوس الصعود متكامل تدريجاً، وإن كان بلحاظ قوس النزول واجداً لجميع ما في عالم الإمكان؛ لأنّه الصادر الأوّل أو الظاهر الأوّل؛ إذ لا يناسب الصادر الأوّل إلاّ العلم الإحاطي بكلّ ما يصدر من الله سبحانه بعده، ولا يلائم الظاهر الأوّل إلاّ الشهود الإحاطي بجميع ما يظهر منه تعالى بعده؛ لأنّ هذا هو مقتضى التقدّم الرتبي ونحوه.

وإنّ الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) في مقام التفصيل يدعو الله تعالى ويطلب منه مزيد العلم: ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[1].

وإنّ الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) كان يهتمّ بالقرآن الحكيم كما أُمر(صلّى الله عليه وآله وسلّم) به.

وإنّ جميع السور والآيات ممّا أنزلها الله بمعانيها وألفاظها والتأليف بينهما كما مرّ.

---

١ ـ طه: ٢٠/١١٤.

وإنّ جميع ما أتى به وأخبره وأعلمه الناس حقٌّ لا ريب فيه، نعم يمكن أن يتربّص(صلّى الله عليه وآله وسلّم) نزول الوحي، ويعلم ما صنع الله سبحانه في الخلقة، أو أراده في الشريعة (في مقام التفصيل) حتّى يخبر به ويُعْلِمه الناس.

وإنّ الميز حاصلٌ بين ما أخبر به وأتى به، وبين ما لم يخبر به وينتظر نزول آيةٍ حتّى يخبر بمضمونها، كما هو المنساق من نزول القرآن الكريم متدرّجاً طيلة ثلاثة وعشرين عاماً.

وإنّ مدار البحث هنا هو خصوص ما في القرآن الكريم، وأنّه هو خصوص ما أخبر به، لا ما لم يخبر به، فطلب الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) مزيد علم وتَربّصه لأنْ يُعَلِّمه الله، ويَعْلَم هو(صلّى الله عليه وآله وسلّم) به خارج عن محور الكلام هنا.

وسرّ اختصاص البحث بالقرآن الكريم هو أنّه الأصل في الدين، ولزوم عَرْض كلّ خبر ـ سواء كان له معارض أم لا ـ عليه، أي على القرآن الحكيم، فإن كان مبايناً له فهو مردود، وإن لم يكن مخالفاً له فهو مقبول، كلزوم عرضه على السنّة القطعيّة أيضاً، فكلّ خبر أو أثر مباين للسنّة القطعيّة فهو مضروب على الجدار، وإن لم يكن مخالفاً لها فهو مقبولٌ.

فلو كان هناك خبرٌ قطعيٌّ الصدور ولكن لم تُحرز جهة صدوره من أنّه كان لبيان الواقع أو لمحذور طرء هنا، فلا يكون ذلك الخبر قطعيّاً، بل ولا حجّة، ولو كان هناك خبر قطعيّ الصدور وقد أُحْرِزَت جهة صدوره أيضاً بالقطع

ولكن لم يكن في الدلالة على المقصود قطعيّاً بأن يكون محتملاً لوجوه، فلا يكون أيضاً قطعيّاً، بل ولا حجّة، ولو كان هناك خبر قطعيّ في الجهات الثلاث المشار إليها ولكن كان هنا معارض مثله ـ إن فرض ـ فلا يكون أيضاً قطعيّاً، بل ولا حجّة، إلاّ بعد إعمال قواعد التعارض كما هو في فنّ أُصول الفقه من كيفيّة علاج التعارض وتأويل المتعارضين إلى ما به يرتفع التخالف، والغَرَض أنّه لا يحصل في شيء من هذه الموارد السنّة القطعيّة المعادلة للقرآن في لزوم عرض كلّ خبرٍ أو أثرٍ عليها، فلزم البحث عن اشتمال القرآن الكريم على مطلبٍ باطلٍ أتى به الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) ؟ ـ معاذ الله ـ .

وعن كون علم الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) بالسماوات والأرض وسائر ما يرجع إليهما عدا الإلهيّات ممّا يؤول إلى الأُمور الدينيّة والملكوتيّة والأسرار الربوبيّة ونحوها مساوياً لعلم العرب، ومعادلاً لمن يعيش في ذلك العصر والمصر.

وعن الميز بين ما في القرآن الكريم وما أخبر به الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) وما ليس فيه ظاهراً ولم يخبر به، وذلك فيما يلي:

الأوّل: إنّ القرآن الحكيم قد صرّح بأنّ فيه محكماً ومتشابهاً وتمثيلاً وحكمةً وموعظةً وجِدالاً أحسن وقصصاً وأنباءَ الغيب ونحو ذلك ممّا يرجع بعضها إلى المحتوى، وبعضها إلى المنهج، ولا افتقار هنا إلى بيانها عدا التمثيل الذي يلزم التنبّه له في المقام، قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ

مَثَلٍ﴾[١]، ﴿وَ لَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾[٢]، ﴿وَ لَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـٰذَا الْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾[٣]، فعلى المتدبّر في القرآن الحكيم أن يتأمّل في الآيات التي يحتمل كونها تمثيلاً، ويُبيّن كيفيّة التمثيل المناسب للممثّل بعد التنبّه بأنّ للتمثيل تقريباً من وجه خاصّ دون وجه مخصوص آخر، إذ التمثيل غير التعليل الذي يدور معه الحكم المُعلّل سعةً وضيقاً، كما أنّ التمثيل غير التحرير والشرح والتفسير ممّا يتكفّل بيان المراد كاملاً وتامّاً، وهو أيضاً غير التشبيه المشهود في بعض الآيات، نحو قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾[٤]، ﴿أُوْلَـٰئِكَ كَالأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[٥]، وإنّ منها ﴿كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[٦]، ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾[٧] ممّا يفيد التفخيم أو التحقير، فعلى المُفسّر أن يتدبّر في الآيات التي يُفسّرها أنّها من أيّ صنف من هذه الأصناف المارّة؛ لأنّ بعضها لا يشتمل على أداة التشبيه أو التمثيل و... .

الثاني: إنّ العقل النظري الذي علّمه الله ما لم يعلم والعقل العملي الذي أهمه الله الفجور والتقوى وعاءٌ لتلقّي المعارف الإلهيّة التي نطق بها القرآن

---

١ ـ الإسراء: ١٧/٨٩.

٢ ـ الروم: ٣٠/٥٨، والزمر: ٣٩/٢٧.

٣ ـ الكهف: ١٨/٥٤.

٤ ـ المدثّر: ٧٤/٥٠ و٥١.

٥ ـ الأعراف: ٧/١٧٩.

٦ ـ البقرة: ٢/٧٤.

٧ ـ النور: ٢٤/٣٥.

الحكيم، ومرآةٌ لانعكاس المطالب السامية التي دلّ عليها القرآن، وليس للوعاء إلاّ القبول، ولا للمرآة إلاّ التصوّر بصورة العاكس، فلا حقّ لشيء منهما أنْ يُحَمّلا ما لديهما على القرآن؛ ليلزم إسناد الخطأ إلى كتاب الله تعالى ـ معاذ الله ـ بعد تبيّن خطائهما؛ لأنّ القرآن قسطاس مستقيم، وميزان عدل، فيلزم أنْ توزن الآراء بالقرآن من دون أن يجعل الرأي ميزاناً يوزن به القرآن؛ لأنّه قول الله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾[1]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾[2]؛ لأنّ العقل مصباح الشريعة، لا مفتاحها ولا ميزانها؛ لأنّ جعله مفتاحاً لها تفريط في حقّه، وجعله ميزاناً لها إفراط فيه، ولا ريب في أنّ المصباح يضيء الأبصار لترىٰ المبصَر، ولا يغيّر شيئاً منه بزيادة أو نقيصة؛ ولذا نهي عن التفسير بالرأي، فما لم يتبيّن الرشد من الغيّ ولم يتميّز الصواب عن الخطأ لا يمكن أن يفهم من القرآن شيء، وإذا استقرّ الأمر على حكم لا يساعده ظاهر القرآن يمكن أن يجعل البرهان العقلي القاطع مُخصّصاً أو مُقيّداً، أو شارحاً أو قرينة لبّيّة في هذه الأُمور.

والحاصل: أنّه لا يصحّ التحميل على القرآن الكريم، وأنّه لا يجوز حمله على ما لم يتبيّن بالقطع، وأنّه لا يخطىء ولا يغشّ، وأنّه يلزم أتّهام الرأي واستغشاش الهوىٰ، كما قال سيّد الأولياء عليّ بن أبي طالب(عليه السلام) في وصف القرآن: «...واعلموا أنّ هذا القرآن هو الناصح الذي لا يَغُشّ، والهادي الذي لا

---

١ ـ النساء: ١٢٢/٤.

٢ ـ النساء: ٨٧/٤ .

يُضِلّ، والُمحدِّث الذي لا يكذب... واتّهموا عليه آراءكم، واستغِشّوا فيه أهوائكم»[١]، وقال(عليه السلام): «ويعطف الرأي على القرآن إذا عطفوا القرآن على الرأي»[٢].

الثالث: إنّ ما في القرآن حقّ حتّى على فرض أنّ الله تعالى لم يُعلِّم رسوله الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) جميع العلوم الدارجة بين الناس، وعلى فرض أنّ الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) لم يدّع أنّه يعلم جميع ما يعلمه غيره من العلوم التجربيّة والتجريديّة (العقليّة)، وعلى فرض أنّ الناس حتّى العلماء بالله والأمناء على أحكامه وحِكَمه لا يتوقّعون كون الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) عالماً بجميع ما يعلمه الناس، وذلك للفرق بين ما لم يخبر به وبين ما أخبر به صريحاً؛ لإمكان كون عدم إخباره ببعض الأُمور لأجل جهله به (على الفرض الموهوم).

وأمّا ما أخبر به صريحاً فلابدّ وأن يكون حقّاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وإلاّ فكان إخباره بما لا يعلم (معاذ الله).

إمّا مع العلم بجهله فهو ـ على فرض ـ جمع بين الكذب الخبريّ والكذب المخبريّ؛ لأنّه أخبر بشيء لا واقعيّة له، وهو عالم بأنّه خلاف الواقع، وعلى فرضٍ آخر هو الجمع بين محذوري الجهل والكذب ـ (معاذ الله).

وإمّا مع الجهل بجهله فهو جهل مركّب أي الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) لا يعلم شيئاً أخبر به، ولا يعلم أنّه لا يعلمه، ومَن هذا شأنه كيف يكون سيّد

---

١ ـ نهج البلاغة: خطبة ١٧٦.

٢ ـ نهج البلاغة: خطبة ١٣٨.

الأنبياء والمرسلين؟ وكيف يصدق فيه قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[1]؟

وهكذا على الفروض الأُخر المشتملة على السهو، فتبيّن أنّ ما أخبر به الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) ونطق به القرآن الحكيم حقٌّ بلا مرية، وصدقٌ بلا ريب، وإنْ فُرضَ جهله(صلّى الله عليه وآله وسلّم) بأُمورٍ لم يخبر بها.

وأنّ ما في القرآن الذي أتى به الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) مشتمل على الحقّين وحاوٍ على الصدقين: أحدهما: كون أصل الخبر حقّاً وصدقاً، وثانيهما: كون النبيّ ـ أيّ نبيّ كان ـ محقّاً وصادقاً، بمعنى أنّه لو أخبر الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) في القرآن بأنّ إبراهيم أو موسى أو عيسى(عليهم السلام) أو أيّ نبيّ آخر: قال أو فَعَلَ كذا، فالمنقول حقّ بكلا قسميه، والنقل أيضاً حقّ بكلا شطريه؛ لأنّ الرسول لا يَكذب ولا يُكذب، أي لا يخبر كاذباً ولا يخبره الكاذب، وأنّ تفسير أيّ مُفسّر من السالف والآنف لو كان خطأً واتّضح بطلانه فلا يحمل القرآن الكريم خطأ التفسير، كما لا يحمل الرسول وَهْن رأي المُفسّر، بل وزره عليه ـ؛ لأنّ يَدَيه أوكَتا، و فاه نَفَخَ ـ حيث إنّه كان عليه أنْ لا يبادر بحمل القرآن على رأيه أو رأي غيره ممّا لم يتبيّن رشده من غيّه، وهداه من ضلاله، وسمينه من غثّه، ولَبَنُه الخالص من فرثه ودمه، فمن زعم أنّ الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) يخطئ أو أخطأ (معاذ الله) وفسّر مقاله: بأنّ غرضي هو المطلب الذي يكون على منظر الناس خطأ، يعني أنّ ما أخبره

---

١ ـ الأنعام: ١٢٤/٦.

الرسول في القرآن لا يلائم ما وجده البشر بعلمه ـ فمآله بأنّ ما وجده غير الرسول بعلمه حقّ وصدق، وما أخبر به الرسول خطأ (معاذ الله)؛ لأنّه(صلّى الله عليه وآله وسلّم) جهل ما علمه الناس، وأخبر(صلّى الله عليه وآله وسلّم) بما انكشف بطلانه بتحقيق غيره. فانظر ماذا ترى؟

الصلة الحادية والثلاثون

فـي نبذٍ ممّا فـي القرآن من أخبار السماء



إنّ القرآن الحكيم أخبر عن السماء بأُمور لم تكن معهودة ومكتشفة في الأزمنة السابقة ولم تستكشف بعد، والمتوقّع أن تحقّق علميّاً ويكشف عنها في العصور الآتية، منها: ﴿أَنَّ السَّمَـٰوَ ٰتِ وَ الأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا﴾[1]، إذ العلم وإن يكشف بعض أسرارهما ولكن لم يقطع بعدُ بأنّ السماوات والأرض كانتا واحدةً أو متّحدةً أو ملتصقةً وما إلى ذلك من الفروض المتصوّرة.

ومنها: أنّ السماوات التي كانت رتقاً فصارت فتقاً قبل أن تُسوى سبع سماوات كانت دخاناً: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَىٰ السَّمَآءِ وَ هِيَ دُخَانٌ... * فَقَضَـٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَ أَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾[2] هل العلم التجربي أو الرياضي كشف المبدأ القابلي لخلق السماوات السبع من أنّه كان دخاناً أو غيره؟

وهل أفاد بأنّ ذلك في يومين بعد التنبّه بأنّ المراد من اليوم هنا ليس ما هو المقابل لليل ولا مجموعهما لتفرّع ذلك على الحركة الوضعيّة للأرض حول نفسها بالقياس إلى الشمس؟

---

١ ـ الأنبياء: ٣٠/٢١.

٢ ـ فصّلت: ١١/٤١ و١٢.

وهل تبيّن له ما المراد من الوحي المنحدر نحو السماء؟

وهل اتّضح له أنّ الموحي له من هو أو ما هو؟

وهل انكشف له ما الذي أوحاه الله إليه؟

وهل بان له ما الميز بين وحي السماوات بعضها بالقياس إلى البعض؟

ومنها: أنّ الأرض خلقت في يومين، وحيث أفاد بأنّ خلق السماوات والأرض كان في ستّة أيّام[1]، وحكم بأنّ خلق السماوات كان في يومين، وخلق الأرض كان في يومين، فلعلّ الباقي من الستّة وهو اليومان لخلق ما بين السماء والأرض أو لشيء آخر ممّا يرتبط بهما، فهل اطّلع العلم التجريبي على شيء من ذلك نفياً أو إثباتاً؟

وهل يستطيع أن يُضيء فيه بالبرهان القاطع كما أخبر به الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) جازماً مصرّحاً؟

وهل ظفر على معنى اليوم بالنظر الدقيق والرأي العريق؟ أو لم يَجْتَرء على شيء من ذلك حتّى يحكم فيه بالسلب أو الإيجاب؟

ومنها: أنّ السماوات لها أبواب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَآءِ﴾[2] مع أنّ السماء المحسوسة لا باب لها، وأنّ المؤمن والكافر في الصعود إليها والإستقرار عليها سواء.

---

١ ـ المتّخذ من سورة «هود: ٧/١١، والسجدة: ٤/٣٢».

٢ ـ الأعراف: ٤٠/٧.

فهل كان لهذا الأمر الهامّ فـي الجاهليّة أثر أو فـــي الهَيَـويّين والمـنجّمين مــن بطلميوس وغيره خبر؟ وأنّها تفتّح وتـصير أبوابـاً للمعـاد: ﴿وَ فُتِحَـتِ الـسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَ بًا﴾[١].

ومنها: أنّ السماوات التـي قد عبّر عنها بالبناء[٢] وبالسقف المحفوظ[٣] وأنّهـا مرفوعة: ﴿وَ السَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾[٤] لا عمود لها: ﴿اللَّـهُ الَّـذِي رَفَـعَ الـسَّمَـٰوَ ٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾[٥] أو لا عماد لها مرئي وإن كان لها عماد، فهل ذلك العماد الذي لا يرى هو الجاذبيّة أم شيء أُخر؟ وعلى كلا الفرضين يلائم ذلك قوله تعالى: ﴿وَ مِنْ ءَايَـٰتِهِ أَن تَقُـومَ الـسَّمَآءُ وَ الأَرْضُ بِـأَمْرِهِ﴾[٦] وقولـه تعـالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَ ٰتِ وَ الأَرْضَ أَن تَـزُولاَ﴾[٧]؛ لأنّ كـلّ شـيء قـائم بإرادة الله سبحانه بلا وسيط أو معه، فهل أنّ أعراب الجاهليّة والعجم الـذين تحـدّاهم القـرآن الكـريم للمعارضـة والمنازلـة اسـتطاعوا أن يعرفـوا قـدرة الجاذبيّة؟!

---

١ ـ النبأ: ١٩/٧٨.

٢ ـ المتّخذ من سورة «البقرة: ٢٢/٢».

٣ ـ المتّخذ من سورة «الأنبياء: ٣٢/٢١».

٤ ـ الرحمن: ٧/٥٥.

٥ ـ الرعد: ٢/١٣، ولقمان: ١٠/٣١.

٦ ـ الروم: ٢٥/٣٠.

٧ ـ فاطر: ٤١/٣٥.

ومنها: أنّ النفوذ من أقطار السماوات والأرض لا يمكن بلا سلطانٍ وبرهانٍ علمي أو قدرة ملكوتيّة، فهل هذا إلاّ إرشاد إلى النظم المتقن، وأنّ النفوذ من أقطارها ممكن، وأنّ وسيلته السلطان أي البرهان المُلكي أو الملكوتي؟ فهل هذا كان معهوداً حينذاك؟

وهل النفوذ من أقطار السماء بالحُبُك التي هي فيها؟ كما قال سبحانه: ﴿وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾[1]، وما المراد من الحباك فيها؟ هل هو مسير الكوكب؟ أو غيره ممّا يلزم الباحث الفاحص أنْ يحقّقه.

ومنها: أنّ في السماء بروجاً أي قصوراً؛ لأنّ البرج هو القصر، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[2]، والمراد منها الكواكب؛ لأنّها شبيهة بالقصور، وهذه البروج زينةٌ للناظرين، كما قال سبحانه: ﴿وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾[3]، فليس المراد منها البروج النجوميّة، أي برج الحَمَلُ والثور والجوزاء و... إلاّ باعتبار الكواكب؛ لأنّها زينة وسراج، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا﴾[4] ومصباح، كما قال سبحانه: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا﴾[5]، والتعبير عن الكوكب بالبرج أي القصر تارةً،

---

١ ـ الذاريات: ٧/٥١.

٢ ـ النساء: ٧٨/٤.

٣ ـ الحجر: ١٦/١٥.

٤ ـ الفرقان: ٦١/٢٥.

٥ ـ فصّلت: ١٢/٤١.

وبالسراج أُخرى، وبالمصباح تارةً ثالثة يشعر بالتشبيه إلاّ أن تكون هذه الألفاظ موضوعةً لمفاهيم عامّة تنطبق على الكواكب بالحقيقة لا بالتشبيه.

ومنها: أنّ جميع الكواكب في السماء الدنيا، أي أقرب السماوات إلينا: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَ حِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ * لاَّ يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الأَعْلَىٰ وَ يُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَ لَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾[١]، ﴿وَ زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَ حِفْظًا ذَ ٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[٢].

فالمستفاد من القرآن المجيد هو: أنّ الكواكب كلّها في السماء الدنيا، أي هي المزادنة بها خلافاً لما نقل عن غير واحدٍ من مَهَرَة النجوم من أنّ كلّ واحد من الكواكب السبع السيّارة المشهورة لديهم في السماوات السبع على النَضد المعهود بينهم بهذا الترتيب:

١ـ القمر ٢ـ العطارد ٣ـ الزهرة ٤ـ الشمس ٥ـ المرّيخ ٦ـ المشتري ٧ـ الزحل.

والكواكب الثابتة بزعمهم في السماء الثامنة، وأمّا السماء التاسعة فلا كوكب فيها لا ثابت ولا سيّار، فهو أطلس، ويُعبّر عنه بفلك الأفلاك والفلك المحيط و... .

ولعلّ ما في القرآن الكريم قد ذكر في الصحف الإلهيّة النازلة على الأنبياء الأوّلين الذين هم قبل بطليموس بطيلة قرون، فلا مساس لما في القرآن بالعلم

---

١ ـ الصافّات: ٣٧/٦ ـ ١٠.

٢ ـ فصّلت: ٤١/١٢.

الدارج في عصر نزوله أصلاً حتّى يُتوهّم أنّ علم النبيّ(صلّى الله عليه وآله وسلّم) ـ معاذ الله ـ متّخذ منه، ويلزمه أن يبطل ببطلانه.

ثمّ إنّ هنا احتمالاً وهو: أنّ النجوم السماوية على قسمين: أحدهما: ممّا يُرى، وثانيهما: ممّا لا يُرى حسبما يستفاد من قوله سبحانه: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَ مَا لاَ تُبْصِرُونَ﴾[1].

ومن المحتمل أنّ النجوم المرئيّة بأسرها هي في السماء الدنيا، والنجوم غير المرئيّة فيما عداها، وإن كان هذا الاحتمال لأوّل وهلة غير مشفوعٍ بالبرهان.

والذي يستفاد من هذه الآيات أُمور:

الأوّل: الاهتمام بالقَسَم بالنجوم وتعظيمه، كما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ النُّجُومِ * وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[2]، ولا ميز في هذا الأمر بين ما ذكر فيه النجم بعنوانه العامّ أو الخاصّ، نحو قوله: ﴿وَ الشَّمْسِ وَ ضُحَـٰهَا * وَ الْقَمَرِ إِذَا تَلَـٰهَا﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾[4].

الثاني: ترغيب الناس بالاهتمام بمعرفة النجوم؛ لأنّ الإقسام بها ليس قَسَماً مقابلاً للبيّنة، بل إقسام الله سبحانه بشيء إنّما هو قسم بها ـ أي بالبيّنة ـ ترغيباً للناس إلى معرفتها؛ لأنّ بها يهتدي الناس في ظلمات البرّ والبحر.

---

١ ـ الحاقّة: ٣٨/٦٩ و٣٩.

٢ ـ الواقعة: ٧٥/٥٦ و٧٦.

٣ ـ الشمس: ١/٩١ و٢.

٤ ـ التكوير: ١٥/٨١ و١٦.

الثالث: تحضيض الناس بالاهتمام بتحصيل الرزق المُلكي والملكوتيّ منها؛ لأنّ الله سبحانه جَعَل قِسماً من الرزق فيها، حيث قال: ﴿وَ فِي السَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَ مَا تُوعَدُونَ﴾[١]؛ لأنّ العلم رزق، والإبداع رزق، واستنزال القوّة من السماء إلى الأرض رزق، ومعرفة العروج من الأرض إليها رزق، وتأمين نور الأرض وقوتها من السماء رزق، ومعرفة نضدها ونظمها والاستدلال بذلك على الناضد والناظم رزق، و... .

الرابع: تشبيه النجوم بالرجوم نحو تشبيهها بالبروج والسراج والمصابيح، وليس المراد من قوله تعالى: ﴿وَ جَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ﴾[٢] أنّ النجم أي الكرة العظيمة بنفسها رجمٌ بمعنا ما يُرجَم به ـ كما يقال اللفظ ويراد منه الملفوظ ـ ، بل المراد هو ما يتساقط منها من الشُهب لشهادة قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾[٣]، و﴿إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾[٤]، و﴿فَمَن يَسْتَمِعِ الأَنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾[٥]، فمن الممكن على فرض عدم التمثيل حسبما تقدّم وعلى فرض عدم التشبيه كما أُشير إليه الآن أن يكون الشهاب المتساقط من النجم رجماً لا نفس النجم، ويؤيّده اقتران الراصد الراجم بالشهاب لا بالنجم في قوله تعالى: ﴿وَ أَنَّا لَمَسْنَا السَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ

---

١ ـ الذاريات: ٢٢/٥١.

٢ ـ الملك: ٥/٦٧.

٣ ـ الحجر: ١٨/١٥.

٤ ـ الصافّات: ١٠/٣٧.

٥ ـ الجنّ: ٩/٧٢.

حَرَسًا شَدِيدًا وَ شُهُبًا﴾[١]؛ لأنّ الحارس هو الراجم، والرجم ـ ما به يرجم ـ هو الشهاب لا النجم، إلاّ باعتبار تساقط الشُهُب منه، والحَرَس هم الملائكة الذين جعلهم الله سبحانه رَصَداً.

وأمّا كون نَبَأ السماء أمراً علميّاً مجرّداً غير محسوس ولا يختلف فيه الزمان والمكان ونحو ذلك فهو غير تامّ؛ لأنّ النَبَأ السماوي إذا أراد الله أنْ يُنزِلَه إلى الأرض فلابدّ من صلوح الزمان والمكان، كصلوح الشخص الموحىٰ إليه، أو المسترِق، فكما أنّ لليلة القدر ونحوها من الليالي المباركة دخلاً في قابليّة القابل وللحِراء أو الكعبة أو المسجد الحرام أو القدس ونحوها من الأماكن المتبرّكة دخلاً فيها فكذلك يمكن أن يكون للعروج إلى السماء دخلاً في قابليّة الاستراق والاستماع ونحو ذلك؛ إذ لا برهان على امتناعه.

والحاصل: أنّ في السماء ملائكة: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَـٰوَٰتِ لاَ تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾[٢].

وأنّ للوحي النازل من لدى العليّ الحكيم إلى الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) رصداً منهم: ﴿يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾[٣].

---

١ ـ الجنّ: ٨/٧٢ .

٢ ـ النجم: ٢٦/٥٣.

٣ ـ الجنّ: ٢٧/٧٢ و٢٨.

وأنّ هؤلاء الملائكة حَرَسٌ مُلِئَت السماء بهم: ﴿وَ أَنَّا لَمَسْنَا السَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَ شُهُبًا﴾[١].

وأنّ الملائكة على أصناف وما منهم إلاّ له مقام معلوم، فليس كلّ واحدٍ منـهم مجرّداً تامّاً عقليّاً لا يرجم بالشهاب؛ بل بعضهم فوق بعض، فيصدر من بعضهم مـا لا يصدر من بعضهم الآخر، ويصيب بعضهم ما لا يصيب بعضهم الآخر.

وأنّ هنا وجوهاً ومحامل أُخر يُتَنبّه لها بعضٌ من أهل النظر ممّـن قـد فـتح الله بصيرته أو يأتـي به الزمان بعد ذلك.

وأنّ للسماء توسعةً سيتّضح معناها برقيّ العلم الباحث عـن النجـوم والهـواء والفضاء بإذن من له الهواء والفضاء[٢] حيث قال سبحانه: ﴿وَ السَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْيْـدٍ وَ إِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[٣].

وأنّ السماء هل هي مرادفة للفلك كما يزعمه عامّة الناس أم لـيس كـذلك كما هو على الرأي العلميّ السائد؟

وأنّ الفيثاغوريّين كانوا قائلين بحركة الأرض، وحيث كان عدد العشرة عندهم متبرّكاً ومباركاً مالوا إلى كوكبٍ نوريّ يكون هـو المنبـع لنـور الـشمس والقمـر وسائر الكواكب، وهو المركز لهذه الحركات، ولا يراه الناس؛ لأنّ القـسم المعمـور من الأرض الذي يعيش فيها الناس يكون دائماً مُدبراً بلا إقبال أصلاً، وبعد طيلة

١ ـ الجنّ: ٧٢/٨ .

٢ ـ دعاء الجوشن الكبير.

٣ ـ الذاريات: ٥١/٤٧.

قرون زمن عهد الفيثاغوريّين طَلَعَ منجّم كلداني مدعوّ بـ «سلوكوص بابِلي» ذَهَب إلى مذهَبٍ مال إليه «كبرنيك» من المتأخّرين، وهو أنّ الشمس مركز لحركة السيّارات، ولم يَقبل كون المحور هو منبع النور الذي ذهب إليه «فيلالائوس» من المتقدّمين.

وذهب قوم آخرون إلى أنّ مركز حركات السيّارات هو الأرض الساكنة، والذي ذهب إليه من متقدّميهم هو المدعوّ بـ«قاليبوس» وتلميذه «أوذوكس»، واختار طريقه أرسطو مع تغييرٍ ما، وقد طلع «بطليموس» بعده بمضيّ قرون، وكتابه المسمّى بـ«المَجَسْطي» معروف.

وقد تعرّض علماء الإسلام لكلا القولين من حركة الأرض وسكونها، قال أبو ريحان البيروني: «لا فرق في الحساب النجومي بين حركة الأرض وحركة السماء»[1]؛ لأنّ اللاّزم مشترك، وبه يتمّ الحساب.

والذي لا ينبغي الذهول عنه هو: أنّ العقل التجربي بعد تماميّة نصابه الاستدلالي كالعقل التجريدي كلاهما زميلان للنقل المعتبر، معدودان من الحجج الشرعيّة؛ إذ العقل معاضد للنقل المساعد له، وكلّ واحد منهما شارح لشقيقه، مخصِّص أو مقيِّد أو قرينة لتبيين مراد رفيقه ومقصود صاحبه بلا تَعضيةٍ ولا تفكيك ولا تجزية لأعضاء أصل واحد وأجزاء حقيقة فاردة.

---

١ ـ نقل واقتباس وتلخيص واستفادة ممّا أفاده شيخنا الأستاذ العلاّمة ذو الفنون المدعوّ بـ«أبو الحسن الشعراني»(قدّس سرّه) في كتابه المسمّى بـ«نثر طوبى»، ذيل لغة «فلك وسماء».

هذا نزرٌ ممّا ورد فـي القرآن الحكيم من أخبار السماء ولنأتِ بشطرٍ قليلٍ مـن كلام سيّد الموحّدين عليّ بن أبـي طالب(عليه السلام) الذي قـال فيـه الرسـول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) أنّه باب مدينة العلـم والحكمـة: «أنـا مدينـة العلم وعليّ بابها»[١]، وقال هو فـي حقّ نفسه: «أيّهـا النـاس! سلونـي قبـل أن تفقدونـي فلأنا بطرق السماء أعلَم منّـي بطـرق الأرض»[٢]، وقـد تـصدّي(عليـه السلام) لتوضيح وبيان خلق السماوات السبع الرتقـاء التـي فُتِقـت بعـد الرتـق كأنّه(عليه السلام) كان حاضراً، وقد أخـبر قاطعـاً ونطـق جازمـاً بخلقـة الهـواء والرياح والماء المتلاطم فـي البحـر، وخلـق الجامـد مـن ذلـك المـايع، وخلـق السماوات منه، قال(عليه السلام): «ثمّ أنشأ سبحانه فَتْقَ الأجواء، وشقّ الأرجاء، وسَكائِكَ الهواء، فأجرى فيها ماءً متلاطماً تيّارهُ، متراكماً زخّاره، حَمَله على متن الريح العاصفة والزَعزَعِ القاصفةِ، فَأمرها بردّه، وسَلّطها علـى شـدّه، وقَرَنهـا إلى حدّه، الهواء من تحتها فتيقٌ، والماء من فوقها دفيقٌ.

ثمّ أنشأ سبحانه ريحاً اعـتَقَم مَهَبّهـا، وأدام مُربَّهـا، وأعـصَفَ مجراهـا، وأبعَـد منشأها، فَأمرها بتصفيقِ الماء الزخّار، وإثـارةِ مـوج البحـار، فَمَخَـضَتْه مَخـضَ السقاء، وعَصَفت به عَصفَها بالفضاء، ترُدُّ أوّلَه إلى آخِـره، وسـاجيه (سـاكنه) إلى مائره، حتّى عبَّ عُبابُه، ورَمىٰ بالزَبَد رُكامُـهُ، فَرَفَعـه فـي هـواء منفتِـق، وجـوّ مُنفَهِق، فسوّى منه سبع سماوات، وجعل سفلاهنّ موجاً مكفوفاً، وعُليـاهنّ سـقفاً

---

١ ـ عيون أخبار الرضا ٢: ٧١، ح ٢٩٨.

٢ ـ نهج البلاغة: خطبة ١٨٩.

محفوظاً، وسَمْكاً مرفوعاً بغير عمدٍ يدْعمُها، ولا دسارٍ ينظمها، ثمّ زيّنها بزينة الكواكب، وضياء الثواقب، وأجرى فيها سراجاً مستطيراً، وقمراً منيراً، في فَلَك دائر، وسقفٍ سائر، ورقيمٍ مائر»[١].

اعلم أنّ الله سبحانه لم يُشهِد أحداً حين خَلَقَ السماوات السبع ومن الأرض مثلهنّ، ولكن لا غرو في أن ينبّيَ الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) الذي هو مدينة العلم وفي ضوئه يطّلع من هو باب هذه المدينة عن بدء الخلقة ويخبر عن كيفيّة تحقّق السماوات السبع جازماً قبل أن يُخلق الكرَم، فهل بَلَغ العلم التجربي هذا الشأو القاصي حتّى يجترء على الفحص عن تقدّم الماء على السماء ويكشفه قاطعاً؟

وهل أمكن لبطلميوس وأضرابه أن يطّلع على دوران الفَلَك وسير السقف السماوي ومَوْر الرقيم واللوح، مع أنّ المأثور من هؤلاء هو سكون الفلك لا دوره، وثبات السقف لا سيره، وركود الرقيم السماوي لا مَوْره؟

وهل يتفوّه الإنسان الكامل المعصوم الذي هو عديل القرآن وزميله حسبما يستفاد من قوله(صلّى الله عليه وآله وسلّم) : «إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي»[٢]بما لا يعلم مع دعواه بأنّه(عليه السلام)بطرق السماء أعلم منه بطرق الأرض، أضف إلى ذلك ما أخبر به من قوله(عليه السلام): «ثمّ فتق ما بين السماوات العُلا، فَمَلأهنّ أطواراً من ملائكته، منهم سجودٌ لا يركعون،

---

١ ـ نهج البلاغة: خطبة ١.

٢ ـ كمال الدين: ٢٣٤، ح ٤٤.

وركوع لا ينتصبون، وصافّون لا يتزايلون، ومسبّحون لا يسأمون، لا يغشاهم نوم العيون، ولا سهو العقول، ولا فترة الأبدان، ولا غفلة النسيان، ومنهم أُمناء على وحيه، وألسِنة إلى رسله، ومختلفون (متردّدون) بقضائه وأمره، ومنهم الحفظة لعباده، السَدَنة لأبواب جنانه...»[١].

فإذا كان باب مدينة العلم عالماً بكيفيّة خلق السماوات والأرض وحيث نطق(عليه السلام) في خلق الأرض جازماً بما لم يُعْهِد ولا يُعْهَد من أحدٍ، فكيف نفس المدينة الذي صار بالإسراء والمعراج شاهداً لما في إطباق السماء من عددها وحركتها وبروجها وسراجها ومصابيحها ورجومها وشُهبها وحَرَسها وجميع ما أخبر به عنها في القرآن الحكيم؟

فهل يمكن التفوّه بأنّ مدينة علم السماء والأرض وأعراب الجاهليّة سواء؟!

وهل يمكن الإيمان بفناء الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) في وجه الله واتّحاده معه بأيّ معنى معقول أُريد من الفناء والاتّحاد ثمّ احتمال خطأه(صلّى الله عليه وآله وسلّم) معاذ الله؟! مع أنّ المتّحدين حكمهما واحد كما تقدّم.

فلابدّ إمّا من صيانة الرسول عن الخطأ وعصمته من الجهل والسهو كما هو الحقّ، وإمّا خطأ مَن اتّحد هو به وسهوه وجهله تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً، سبّوح قدّوس ربّنا وربّ الملائكة والروح.

---

١ ـ نهج البلاغة: خطبة ١.

والحاصل: أنّ بعض الآيات القرآنيّة تصلح للانطباق على مذهب «بطليموس» بلا صراحة، وبعضها الآخر على مذهب «كبرنيك» بلا صراحة أيضاً كذلك.

فمن الأولى قوله سبحانه: ﴿وَ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَ ٰتٍ طِبَاقًا﴾[1].

ومن الثانية قوله تعالى: ﴿وَ لَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾[2].

ولا يصحّ تحميل شيء منهما على القرآن الكريم إلاّ على حدّ الاحتمال حتّى يتبيّن الرشد من الغيّ، والحقّ من الباطل، والعلم من الفرض، والجزم من الخرص وما إلى ذلك، فمن حمّل رأيه على القرآن فقد أخطأ، فإذا تبيّن خطأه فقد انكشف بطلان رأيه لا بطلان الوحي الإلهي المصون عن ذلك كلّه.

---

١ ـ الملك: ٣/٦٧.

٢ ـ المؤمنون: ١٧/٢٣.

الصلة الثانية والثلاثون

فـي شطر ممّا فـي القرآن الكريم من تأثير الشيطان الرجيم

إنّ القرآن الحكيم قد أخبر عن وجود الشيطان، وأنّه من الجنّ، وأنّه يمكن أن يصير بعض الإنس شيطاناً: ﴿شَيَـٰطِينَ الاْنْسِ وَالْجِنِّ﴾[1].

وأنّ الجنّ موجود ومخلوق من النار: ﴿وَ الْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾[2].

وأنّ الشيطان صنف خاصّ من الجنّ وهو العاصي منهم، كما أنّ الشيطان الإنسي أيضاً صنف مخصوص وهو العاتي منه.

وأنّ إبليس كان من الجنّ.

وأنّ الجنّ قادر على الصنائع الدقيقة والأعمال الرزينة: ﴿وَ مِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ مَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَ تَمَـٰثِيلَ وَ جِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَ قُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾[3].

وأنّ الجنّ يقدر على الإيحاء الخبيث والوسوسة المشؤومة: ﴿إِنَّ الشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ﴾[1]، ﴿يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ﴾[2].

---

١ ـ الأنعام: ١١٢/٦.

٢ ـ الحجر: ٢٧/١٥.

٣ ـ سبأ: ١٢/٣٤ و١٣.

هذا نَبذٌ ممّا ورد في الجنّ والشيطان من اقتداره على التصرّف في النفس بالإيحاء والوسوسة، ومن قدرته على الأعمال الشاقّة الدقيقة، ولم يرد في نصّ خاصّ معتبر على حصر سيطرته على ما ذكر، وعدم سلطنته على غيره.

وإنّ الإنسان موجود له نفسٌ يتأثّر بالتلقين، وبدنٌ يتأثّر بالتحريك والتبريد والتسخين وما إلى ذلك، وأنّ الإنسان قابل لأن يتنوّع بحسب باطنه بأيّ نوع يحوّله إليه، أو ما يؤثّر فيه بأن يصير كالأنعام أو أضلّ كالحجارة، أو أشدّ قسوةً، شيطاناً إنسيّاً أو غير ذلك في مهاوي هبوطه أو معارج رُقيّه بأن يصير إنساناً روحانيّاً قدسيّاً مَلَكيّاً، وكلّ ذلك لأنّ النفس الإنسانيّة ما لم تفارق البدن تقدر أن تتحرّك في الصراط المستقيم، وأحد جانبيه الإفراط والتفريط، وتسير في ذلك حتّى تصير إيّاه، ولا غَرْو في تأثير الجنّ في بدنه تارةً وفي نفسه أُخرى بالإيحاء والوسوسة والتلقين المسموم، وإنّ الربـاء داءٌ عُضال وعَياءٌ، وأنّ آكل الربا كأنّه يُعْلِم ويُعلِن بحربٍ من الله، فإذا ابتلى الشحيح الحريص المتكاثر الذي جمع مالاً وعدّده وحَسَب أنّ مالَه أخْلَده، وهو لا يحضّ على إطعام المسكين، ويحبّ المال حُبّاً جمّاً، ولا ينفق مال الله الذي آتاه، ولا يقرض الله قرضاً حسناً، بالربا الذي حرّمه الله أشدّ تحريم، فما المانع من أن يُلقّنه الشيطان ويُؤثر في روحه وعقله، ويغالطه أوّلاً بترجيح الموهوم على المعقول، وثانياً بأن ينبذ كتاب الله وراء ظهره وما إلى ذلك من المبادئ الموجبة للسفاهة: ﴿وَمَن يَرْغَبُ

---

١ ـ الأنعام: ١٢١/٦.

٢ ـ الناس: ٥/١١٤ و٦.

عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾[١]، والباعثة لتَدْسِيَةِ النفس وتدسيسها، وإخماد العقل الذي به يعبد الرحمن ويكتسب الجنان، فهل هذا إلاّ التخبّط والجنون والهجر؟ كما قال سيّد الأولياء والأوصياء مولانا ومولى الموحدين أميرالمؤمنين(عليه السلام) لطارقٍ طَرَقَه بملفوفةٍ في دعائها: «... أصِلَةٌ، أم زكاةٌ، أم صَدَقَةٌ؟ فذلك محرّم علينا أهل البيت، فقال: لا ذا ولا ذاك، ولكنّها هديّةٌ، فقلت: هَبِلَتك الهبول! أعن دين الله أتيتني لتخدعني؟ أمُختَبِطٌ أنت أم ذو جِنّةٍ أم تَهْجُر؟...»[٢].

ولا بُعد في اشتداد التلقين وتبدّل الوصف الذي كان حالاً إلى ملكةٍ، وتحوّل تلك الملكة التي كانت بمثابة الوصف اللاّزم إلى الفصل المقوِّم للهويّة لا للماهيّة، ويصير آكل الربا مخبوباً في العين لا في الذهن والوهم فقط، ولا ميز فيه بين ظهور هذا التحوّل في الدنيا أو البرزخ أو القيامة الكبرى وظهور المرتبة الخفيفة منها في الدنيا، المتوسّطة منها في البرزخ، والشديدة منها في المعاد.

فإذا أمكن ذلك عقلاً وساعده الاعتبار وعاضدته الأخبار ودعمته الأسرار فما المانع من الأخذ بظهور قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوٰاْ لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَٰنُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَوٰاْ...﴾[٣]؟

---

١ ـ البقرة: ١٣٠/٢.

٢ ـ نهج البلاغة: خطبة ٢٢٤.

٣ ـ البقرة: ٢٧٥/٢.

وما المحذور من الحكم بأنّ آكل الربا مجنون أو يصير مجنوناً، ومنشأ جنونه هو مسّ الشيطان وإيحائه وتلقينه الباطل ومغالطته عليه حتّى يُمنّيه ويُضلّه ويغويه ويَحتنِكه راكباً عليه ويُلْجِمه فارساً عليه.

نعم لو ثبت استحالة تلقين الشيطان وتأثيره في الإنسان في جزمه العلمي وعزمه العملي لصار هذا الدليل العقلي شاهداً لُبّياً على لزوم حمله على التمثيل أو التشبيه، إمّا بارتكاب التجوّز في الكلمة حتّى يصير مجازاً لغويّاً، أو التجوّز في الإسناد حتّى يصير مجازاً عقليّاً، لا الحكم ببطلانه وجهله أو سهوه وخطأه اعتماداً على ما هو المعهود في الجاهليّة، أو المعروف بين صنف خاصّ من العرب.

والحاصل: إنّ الجنون ونحوه من الأمراض الروحيّة تارةً يحصل من العلل المستورة، وأُخرى من العوامل المشهورة، وإنّ العقل التجربي وإن أثبت أمراً محسوساً مجرّباً بالحسّ، ولكن ليس في وسعه نفي ما عداه؛ لأنّ التجربة غير قادرةٍ على سلب ما لم تجرّب.

نعم إنّ العقل التجريدي الذي يدور أمره بين المتناقضين يقدر على إثبات أمرٍ ونفي نقيضه فيما دار بين المتناقضين، أو ما يرجع إلى النقيض كالضدّين الذَيْنِ لا ثالث لهما، وإنّ عدم الوجدان لا يدلّ على عدم الوجود إلاّ في العلم الأزليّ المحيط بكلّ شيء؛ حيث إنّه لو لم يعلم العليم بكلّ شيء أمراً يكشف ذلك كشفاً قطعيّاً بأنّه معدوم محض، وأنّه لا شيء صرف، كما قال سبحانه: ﴿وَ يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَ لاَ يَنفَعُهُمْ وَ يَقُولُونَ هَـؤُلاَءِ شُفَعَـؤُنَا عِندَ اللَّـهِ قُلْ

أَتُنَبِّـُونَ اللَّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَـٰوَٰتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَـٰنَهُ وَ تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1].

وأمّا العلم المحدود سيّما التجربة الحسيّة فليس في نطاقها سلب ما لم يعلم ولم يجرّب، وإنّ الإنسان الذي ربّما يسرع إليه الصرع والخبط من الظلمة والخلاء والوحدة الموحشة فما المانع من أن يتخبّط خبط العشواء بوسوسة الشيطان الذي قد يكون له الرسالة السيّئة على الطغاة اللئام، والولاية المهلكة على العصاة، كما قال سبحانه: ﴿ أَنَّـآ أَرْسَلْنَا الشَّيَـٰطِينَ عَلَى الْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾[2]، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[3]. فالشياطين قد يُؤمرون بإطاعة الأولياء كما في قصّة سليمان(عليه السلام)، وقد يُؤمرون بعقاب الأعداء كما في هاتين الآيتين.

والتوحيد الأفعالي وإنْ اقتضى إسناد جميع ما في العالم إلى الله سبحانه، ولكن مع انحفاظ الاستناد إلى المبادئ الخاصّة بعنوان مجالي الفيض، فكما أنّ الصرع والخبل والخبط الحاصل بالعلل العادية منسوب إلى مبدأ المبادئ تعالى بلا جبر ولا تفويض؛ فكذلك ما يحصل من ذلك بتلقين الشيطان ووسوسته ينسب إليه سبحانه بلا محذور، وإنّ مفاد هذه الآية الدالّة على أنّ التخبّط من مسّ الشيطان وجنونه صحيح لا اشتباه فيه، وعلمٌ لا جهل فيه، وصوابٌ لا

---

١ ـ يونس: ١٠/١٨.

٢ ـ مريم: ١٩/٨٣ .

٣ ـ الأعراف: ٧/٢٧.

خطأ فيه، وذلك لأنّ الاستعمال أو الإسناد إمّا صحيح أو غلط، والصحيح إمّا حقيقة أو مجاز، والمجاز إمّا في اللغة أو الإسناد، والغلط ليس مجازاً كما أنّه ليس حقيقة.

وإسناد التخبّط إلى الشيطان ليس جَهْلاً وخَطَأً على رأي العرب الجاهل، بل هو حقّ وصواب، وإن اختلف الأصحاب في كونه حقيقةً كما ذهب إليه بعضٌ، أو مجازاً كما ذهب إليه آخرون.

قال أبو جعفر محمّد بن عليّ بن شهر آشوب المازندراني(رحمه الله) المتوفّى (٥٨٨) هـ.ق: «مَثَلٌ عند الجبائي لا حقيقة لَه على وجه التشبيه بحال من تغلب عليه المرّة السوداء، فتضعف نفسه ويلج الشيطان بإغوائه عليه؛ فيقع عند تلك الحال، ويحصل به الصرع من فعل الله، ونُسِب إلى الشيطان مجازاً لما كان عند وسوسته، وكان أبو الهذيل وابن الاخشيد يُجيزانِ كون الصرع من فعل الشيطان في بعض الناس دون بعضٍ؛ لأنّ الظاهر من القرآن يشهد به، وليس في العقل ما يمنع منه...»[١].

وأضاف محمّد بن يوسف الشهير بـ«أبي حيّان الأندلسي الغرناطي» (٧٥٤ ـ ٦٥٤ هـ.ق) بعد قوله: «والظاهر أنّ الشيطان يتخبّط الإنسان حقيقةً، وقيل هو مجاز عن إغوائه الذي يصرعه به قوله: أو على ما كانت العرب تزعمه أنّه يُخبّط الإنسان»[٢]، وناهيك في نقد هذه المزعمة وعدم صحّة التفوّه بها أنّه لما قال أبو

---

١ – متشابهات القرآن ومختلفه: ٢٢ و٢٣، انتشارات بيدار.

٢ ـ تفسير البحر المحيط ٢: ٣٣٢.

القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (٥٣٨ ـ ٤٦٧ هـ.ق): «وتخبط الشيطان من زعمات العرب يزعمون أنّ الشيطان يخبّط الإنسان فيصرع...، والمسّ الجنون ورجل ممسوس، وهذا أيضاً من زعماتهم، وأنّ الجنّي يمسّه فيختلط عقله...»[1].

قال أحمد في نقده: «هذا القول على الحقيقة من تخبّط الشيطان بالقدريّة في زعماتهم المردودة بقواطع الشرع...»[2]، والغَرَض أنّ احتمال كون ما في القرآن جارياً على مزعمة الجاهليّة أمر لا يتحمّله من له معرفة به، ويردّ حَجَر الإيهان إلى حيث جاء، ولو كان من ناحية الزمخشري الذي له مقام في الجملة فإيّاك وإيّاك أن ترضى القول بأنّ في القرآن خطأً أو جهلاً أو سهواً أو شيئاً ممّا يضاهيه تعالى الله وتعالى كلامه عن ذلك كلّه علوّاً كبيراً.

وعليك أنْ تُميّز بين التمثيل أو التشبيه أو المجاز المرسل، وبين المشي على مَزْعمة العرب الجاهلي؛ لأنّ الأوّل حقّ يليق بالقرآن، والثاني باطل يتحاشى القرآن عنه، ويَتَنزّه منه، ويطرده ويبطله؛ لأنّه منه براءٌ؛ لأنّ القرآن كلّه نور وحكمة وكتاب مبين، وهؤلاء قوم لا يكادون يفقهون حديثاً، فأين أحدهما من الآخر؟ وأين الظلّ من الحرور والضحى من الدجى؟

ثمّ إنّ التعبير عن تخبّط آكل الربا بالقيام متخبّطاً لا بالمشي كذلك، وإن كان له جهات عديدة ممّا يرجع إلى قيامه من مرقده في البرزخ أو ساهرة المعاد ونحو ذلك إلاّ أنّ الجهة الموجبة له بلحاظ الدنيا لَعَلَّه لأنّ المال هو سبب قوام المجتمع

---

١ ـ الكشّاف ١: ٣٩٨، ذيل الآية المشار إليها.

٢ ـ ذيل الكشّاف ١: ٣٩٩.

وقيام الملّة حيث إنّ الله سبحانه قال: ﴿وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَآءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِى جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾[١]، وجعل المال ما به يقوم الناس في المعاش، ولذا يعبّر عن فاقده بالفقير؛ لأنّ الذي انكسَرَت قفار ظَهْرِه وعَجَزَ عن القيام يقال له فقير، أي أصابه بليّة فاقرةُ الظهْر، فمن تسيطر على المال وبَغىٰ له عِوَجاً وأمْتاً وبَدَّله عن موضعه بعد ما سمع محلّه يكون قيامه خبطاً وجنوناً، وإن كان مشيه أيضاً مشي ممسوس أضَلَّه الشيطانُ إلاّ أنّ المهمّ هو التعبير عنه بالقيام؛ فالمرابي لا يقوم ولا يقعد إلاّ متخبّطاً، ولا يأخذ المال ولا يعطيه إلاّ ممسوساً؛ لأنّ الذي لا يقوم بالقسط لا يكون مدار قيامه بالعقل؛ إذ لا عقل لمن لا عدل له، فيكون المال الذي به قيام الناس سبباً لعثرته التي لا تقال، وزلّته التي لا تزول ذلّته وذلّة من ابتلى أو يبتلى به، ولا ريب أنّ القيام أقوى شؤون الإنسان وأمْتَنها، فإذا كان هو خبطاً فجميع تلك الشؤون تكون كذلك، فمَثَله مَثَلُ من لا يأتي بخير أصلاً وإن وجَّهه مولاه إلى جهات شتّى، فهو كَلٌّ على الناس الذين ابتلوا بمثله، وعلى المجتمع الراقي السلام إذا ابتلوا بمثله.

---

١ ـ النساء: ٤/٥.

الصلة الثالثة والثلاثون

فـي حُبابٍ من عُباب الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم)



إنّ الله سبحانه نور السماوات والأرض، وهو تعالى بهذا الاسم الجامع قد تجلّى في كلامه وكتابه المسمّى بالقرآن الحكيم، وسمّاه نوراً: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ﴾[1]، وأوّل أثر للنور هو التفسير والتبيين، وثانيه هو التغيير والتكميل وما إلى ذلك؛ فكلّ ما تعرّض له القرآن فقد أظْهَرَه وبَيّنه وكشف أسراره، وحيث إنّ المستفاد من القرآن هو أنّ نظام الوجود ودار التحقّق مخلوق للّه الذي لا مثيل له؛ فكلّ ما سواه فهو مخلوق، سواء في ذلك الموجود الخارجي من السماء والأرض والإنسان الذي يريد أن يعلم به و يعرفه والعلم الذي به يهتدي إلى ذلك الموجود العيني؛ فالمعلوم والعلم والعالم مخلوق للّه؛ فالإنسان الفاحص الباحث بصدد معرفة مخلوق من مخلوقات الله سبحانه بالعلم الذي هو أيضاً نعمةٌ من نعمائه.

فبالتفسير الذي يستفاد من نور القرآن وبالتبيين المستفاد من ضوئه ينقلب عنوان الطبيعة إلى عنوان الخلقة، فالعلم الطبيعي يتبدّل بالعلم الخَلْقي، وهذا ليس تفاوتاً لفظيّاً بل تحوّلاً عميقاً يوجب حصر العلم ـ أيّ علم كان ـ في كونه إسلاميّاً؛ إذ العلم سواء حصل بالعقل التجريدي أو العقل التجربي حجّةٌ

---

١ ـ المائدة: ١٥/٥.

شرعيّةٌ يحرم مخالفته، ويجب أن يكون العمل على طبقه (إن كان علماً قطعيّاً أو علميّاً مورثاً للطمأنينة لا احتمالاً وفرضاً)، وحيث إنّ الإنسان قد أخرجه الله من بطن أمّه ولا يعلم شيئاً وجعل له السمع والبصر والفؤاد ليعلم ويشكر، وإنّ الله سبحانه قد عَلَّم الإنسانَ ما لم يعلم؛ فليس في وسعه أن يتفوّه بما قاله قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾[1]، بل العلم الحقّ كوثرٌ أَلْهَمَه الله سبحانه بشراً سويّاً، ومَنَحَه إيّاه، وحجّةٌ شرعيّةٌ بها يحتجّ على من آتاه يوم القيامة.

وأمّا الجهل والخطأ والسهو والنسيان وما إلى ذلك من القصور والفتور والنقص فلا يستند شيء من ذلك إلاّ إلى الإنسان الذي ورد في حقّه أنّه كان مَنيّاً يُمْنى، وأنّه يردّ إلى أرذل العمر لكيلا يَعلم من بعد علمٍ شيئاً.

فكما أنّ الخطأ في الاجتهاد في المتون النقليّة ليس من الوحي، بل هو من الإنسان المستنبط، وإن كان معذوراً لو كان اجتهاده عن منهج علميّ مقبول لدى الأخِصّاء، كذلك الخطأ في الاستنباط من خواصّ الخلقة بالأدلّة العقليّة التجربيّة أو التجريديّة ليس من الله بل هو من المتفكّر في الخليقة، وإن كان معذوراً لو كان اجتهاده عن مسلكٍ علميّ مقبول لدى مَهَرةِ الفنّ، فقد أثار الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) دفائن نظام الخلقة من المعلوم والعلم والعالم وأزال وَصْمة انعزال الدين عن العلم، وأماط شَوك انفكاك العلم عنه، وصالح بين ما كانوا يتوهّمون العداء بين العلم والدين.

---

١ ـ القصص: ٧٨/٢٨.

وأفاض أنّ معرفة فعل الله تفسير لخلقته كما أنّ معرفة قول الله تفسير لكتابه، فكما أنّ تفسير القرآن علم دينيّ كذلك تفسير الأرض والسماء والبحر والنهر والجماد والنبات والحيوان والإنسان وما إلى ذلك ممّا يرجع إلى الخلقة علم دينيّ له مبادىء قابليّة خاصّة مستندة إلى مباديها الفاعليّة المخصوصة.

وأفاد أنّ الفاجعة الطامّة التي حدثت بين «كاليلو» والكليسا المنبوذة لم تكن تتوقّع، والمرجوّ أن لا يخطر مثلها ببال أحدٍ.

وأعْلَم بأنّ الإنسان وإن شارك غيره من الحيوانات التي يكون نسلها بالتوالد في غير واحد من الشؤون الماديّة كالعَلَقة والمضغة والعظام واللحم وصيرورته جنيناً إلاّ أنّه لا يوجب كونه أحسن المخلوقين، ولا يدلّ على كون خالقه أحسن الخالقين إلاّ أنّه لمّا أنشأه الله خَلقاً آخر وجعله موجوداً خاصّاً غير ما عداه من الأنواع الأُخر صار حينذاك أحْسن المخلوقين، وكشف ذلك عن كون مبدأه الفاعلي وهو الله سبحانه أحسن الخالقين.

وأبان بأنّ الإنسان بنوعه وبخلقته الأصليّة كريم في نفسه، وله فضيلة بالنسبة إلى غيره، وأنّ كرامته باستناد خلافته عن الله سبحانه، وأنّ الخليفة هو من يحكم بحكم المستخلفِ عنه ويعمل طبق إرادته ولا يقوم ولا يقعد إلاّ بما هو رضاه، وأنّ من جلس مجلس الخلافة، واتّخذ إلهه هواه، وحكم بما رآه، وقضى بما استهواه، واختار ما اشتهاه، ورضي لنفسه ما كرهه لغيره، ورضي

لغيره ما كرهه لنفسه يكون كالأنعام بل هو أضَلّ، إن ارتع في مرتع الأجوفين، ويصير من شياطين الإنس، إنْ راغ وغادر وكاد واحتال ونافق وخادع ومَكَر.

وأرشد الإنسان إلى خلافته عن الله في تعمير الدنيا والآخرة، أمّا الدنيا فلأنّ الله سبحانه استعمره في الأرض، أي طلب منه عمارتها باستخراج معادنها ومنابعها وحفظ مياهها وصرفها في مصارفها الاقتصاديّة: «هو الذي أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها»[1]، وأمّا الآخرة فلأنّ أرض الجنّة قِيعانٌ؛ فيكون تحقّق غُرفها وأشجارها وبساتينها كلّ ذلك بعلمه الصائب وعمله الصالح، وكفى بذلك فخراً.

وحكم بأنّ الأوحدي من هذا النوع له سمةُ تعليمِ الأسماء الحسنى للملائكة: «يا آدم! أنبئهم بأسماء هؤلاء»[2]، هذا وأمثاله قد أوجب أن تكون لحياته(صلّى الله عليه وآله وسلّم) الشريفة مآثر قيّمة حتّى يُقسم بها الله سبحانه حيث قال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[3]، «وأنْ يبعثه الله مقاماً محموداً»[4]، أي درجةً رفيعةً يتنزّل منه الخير ويناله غيره، فيحمده وإن كان حمده يرجع

---

١ ـ ناظر إلى «هود: ٦١/١١».

٢ ـ ناظر إلى «البقرة: ٣٣/٢».

٣ ـ الحجر: ٧٢/١٥.

٤ ـ ناظر إلى «الإسراء: ٧٩/١٧».

إلى حمد من بعثه محموداً، «وأنْ يَجْعلَه أماناً للأُمّة فلا يُعَـذّبهم وهـو فـيهم»[١] «وأن يجعله شهيداً على الأنبياء وعلى أُممهم»[٢] وأن يُسْرِي به للقاء حينما عبّر عن لقاء غيره(صلّى الله عليه وآله وسلّم) بالمجيء نحو ما ورد فـي نبـيّ الله إبراهيم(عليـه السـلام): ﴿إِذْ جَـآءَ رَبَّـهُ بِقَلْـبٍ سَـلِيمٍ﴾[٣]، وفـي نبـيّ الله موسى(عليه السلام): ﴿لَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا﴾[٤]، «وأن يُصَلّي تعالى عليـه وملائكته ويأمر الناس بأجمعهم بالتصلية عليه والتسليم لـه»[٥]، وبـالأخرة أن يجعله خاتم سلسلة النبوّة وشجرة الرسالة، فلا تثمر هذا الشجرة الطيّبـة ثمـراً بعد الخاتم كما لا يكتب فـي الصحيفة بعد ختمها.

---

١ ـ ناظر إلى «الأنفال: ٣٣/٨».

٢ ـ ناظر إلى «النحل: ٨٩/١٦».

٣ ـ الصافّات: ٨٤/٣٧ .

٤ ـ الأعراف: ١٤٣/٧.

٥ ـ ناظر إلى «الأحزاب: ٥٦/٣٣».



الصلة الرابعة والثلاثون

فـي تزييف زعم الداحضين



إنّ بعض الدُحَض قد زعم أنّ إثبات نبوّة شخص خاصّ متعـذّر أو متعـسّر؛ لابتنائه على أُصول موضوعةٍ غير بَيّنة ولا مبيّنَة؛ لتوقّفه أوّلاً على إثبات وجـود شخص للّه بحيث يكون شخصاً متكلّماً كالإنسان وصالحاً لأن يخاطبـه الإنـسان، ولتوقّفه ثانياً على إقامة برهان عقليّ على نبوّة خاصّة لشخصٍ مخصوص يَـدّعي أنّ الله سبحانه كلّمه وبَعَثَـه وأرسـله؛ وذلـك لأنّ الموجـود الجزئـيّ غـير قابـل للبرهان، ولا يتجاوز ما جرّبه مدّعي النبوّة منه إلى غيره حتّى يعرفـه، ولم يثبـت شيء من هذه الأُصول على منهج يقبله عقلاء العالم.

وحيث إنّ غير واحدة من هذه الشبهات الداحضة تحكي دَحض مـن اشـتبه الأمر عليه، فزلّ وضلّ، فأراد أن يُضِلّ ويُغْوي تلزم الإشارة إلى زَيْفها وحزازتهـا لئلاّ يكون لمن اشتبه الأمر عليه حجّـةٌ علـى مـن بيـده عقـدة البرهـان العقلـيّ والنقليّ.

إنّ كلّ موجود لا يكون وجوده عـين ذاتـه فهـو مفتقـر إلى موجـودٍ يكـون الوجود عين هويّته، كما أفاده سيّد الموحّدين عليّ بن أبـي طالب(عليه الـسلام): «كلّ قائمٍ فـي سواه معلول»[1].

---

١ ـ نهج البلاغة: خطبة ١٨٦.

وقد يستفاد هذا التعليل من التعليم الإلهي:﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَـٰلِقُونَ﴾[١].

وحيث إنّ هويّة الله سبحانه بسيطة لا نهاية لها؛ فيكون واجداً لجميع الكمالات، ومنزّهاً عن النقائص، فهو تعالى عالم بكلّ شيء، منزّهاً عن سبق الجهل أو لحوق النسيان أو الفاقة إلى الأدوات، وهو سبحانه سميع بصير، ومتكلّم ليكن بلا حاجة إلى الآلات؛ كما قال سيّد الأُوصياء عليّ بن أبي طالب(عليه السلام): «...والخالق لا بمعنى حركة ونَصَبٍ، والسميع لا بأداةٍ، والبصير لا بتفريق آلةٍ، والشاهد لا بمماسّةٍ، والبائن لا بتراخي مسافةٍ»[٢]، «وإنّما كلامه سبحانه فعلٌ منه أنْشَأه ومَثّله»[٣]، «يقول لمن أراد كونه (كن فيكون) لا بصوتٍ يُقْرَع، ولا بنداءٍ يُسمَع»[٤].

فالله سبحانه يسمع ويبصر ويتكلّم لا كالإنسان المفتقر إلى الآلات، فلا ينبغي التوهّم بأنّ كلام الله مع نبيّه كالإنسان حتّى يستوحش منه بأنّه غير قابل للإثبات، كما أنّ إسناد العجز إلى الحكمة الإلهيّة في إثبات النبوّة الخاصّة غير سديد؛ إذ لا يتوقّع من الفلسفة إثبات نبوّة شخص خاصّ بعينه، ولكنّها قد أفادت أُصولاً برهانيّة كافلة لإثباتها، وذلك لأنّ المُبَرهن فيها هو لزوم البعث وضرورته من الله سبحانه في كلّ عصرٍ ومصرٍ بلا وسيط أو معه، ولزوم

---

١ ـ الطور: ٥٢/٣٥.

٢ ـ نهج البلاغة: خطبة ١٥٢.

٣ ـ نهج البلاغة: خطبة ١٨٦.

٤ ـ نهج البلاغة: خطبة ١٨٦.

الإعجاز المُثبتِ لها، والميز بين المعجزة وغيرها من أيّ علم أو فنّ غريب أو قريب حيث إنّ كلّ واحد من تلك العلوم أو الفنون الغريبة أو القريبة ممّا يمكن تعلّمه أو تدرّبه، ولكنّ المعجزة إنّما هي بإرادة الله سبحانه والقداسة الخاصّة لمن يدّعي منصب النبوّة، وهي ـ أي المعجزة ـ لا تُغْلَب أصلاً ولو بإيجاد مماثلها في السالف والآنف.

كلّ ذلك ممّا تقرّر في الفلسفة، والتشخيص على كاهل العليم الخبير، كما أنّ الفقه وإن لم يقدر على إثبات الولاية أو المرجعيّة لشخص خاصّ ولكنّه يقيم البرهان على لزوم الوليّ ولزوم المرجع الفقهي للناس في عصرٍ ومصرٍ بلا واسطة أو معها، ويهدي إلى أوصافهما وإلى شرائط الولاية والمرجعيّة وإلى طريق إثبات ذلك، وإنّما التطرّق إليهما على ذمّة المتضلّع البصير، وهكذا في سائر العلوم والفنون، فالفلسفة كافية لما في عهدتها وليست مسؤولة عمّا ليس في ذمّتها كالفقه ونحوه.

والله سبحانه قادر مطلق لا يعجزه شيء، ولا يفتاق هو إلى شيء، فكلّ شيء ممكن له إيجاده بالإرادة وما لا يوجد بها إنّما هو لامتناع وجوده عقلاً، وهو سبحانه قد يوجد المعنى واللفظ المسموع، وقد يوجد المعنى المعقول، سواء صحبه لفظ أم لا، كما قال أمير الموحّدين عليّ بن أبي طالب(عليه السلام): «وما بَرِحَ للّه ـ عَزَّتْ آلائه ـ في البُرْهَةِ بعد البرهة، وفي أزمان الفتراتِ عبادٌ ناجاهُم في فِكرِهم، وكَلَّمهم في ذات عقولهم...»[1].

---

١ ـ نهج البلاغة: خطبة ٢٢٢.

وحيث إنّ كلامه تعالى بإيجاد الحروف وإنشائها مُؤلّفةً، وإنّ إرادته الفعليّة الحادثة المتجدّدة قائمة به سبحانه قيام الصادر بالمبدأ لا قيام العَرَض بالمحلّ؛ فلا يلزم محذور الحاجة إلى الأدوات، ولا محذور حلول الحوادث في ذاته تعالى، فهو متكلّم كما أنّه سميع وبصير بلا نقد ولا إشكال.

فكلامه من غير لسان ولهاة، وسمعه من غير صماخ وأُذُن، وبصره من غير جفن وحدقةٍ، وهكذا... .

فلا يصلح شيء من تلك الشُبَه الداحضة أن يصير حيلةً يحتال بها من لا يُؤمن بأنّ القرآن كلام الله وكتابه لفظاً ومعنىً وتأليفاً بينهما؛ فيقول:

١ ـ إنّ معاني القرآن الكريم من الله سبحانه، وألفاظه من الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم).

٢ ـ إنّ القرآن الكريم هو كتاب الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم)، وكلامه الناشئ من نظره التوحيدي إلى العالم.

٣ ـ إنّ القرآن هو كلام الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) الناتج من فهمه من ساحة الوجود وحقيقته.

٤ ـ إنّ القرآن هو كلام الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) وحيث إنّه بلغ ما بلغ، دنى فتدلّى فكان قاب قوسين أو أدنى، وفنى في الله وبقي به وصارت هويّته إلهيّةً متّحدة بالله يُحسَب كلامه(صلّى الله عليه وآله وسلّم) كلام الله، إلى غير ذلك من الآراء المزعومة الفائلة.

وحيث إنّ الأمر يتوقّف على تحقيق المعجزة إجمالاً ومعنى الاتّحاد كذلك وعلى التأمّل التامّ في القرآن الكريم نفسه، وعلى أنّه فصل الخطاب؛ لأنّه قول

فصل وليس بالهزل أصلاً، وعلى دلالته على كيفيّة إسناد الكتاب إلى الله وكيفيّة استناده إلى رسوله، وعلى ظهوره في أنّ القرآن حَبْل متين أعلاه عليّ حكيم لا عربيّ ولا عبري وأسفله عربيّ مبين، وهكذا الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) حبل متينٌ إلهيّ أوْجه ليس عَرَباً ولا عَجَماً، وهبوطه محمّد بن عبدالله وابن آمنة مكّيّ تهاميّ أبطحيّ قرشيّ، وما إلى ذلك يبحث عن المقدار اللاّزم من هذه الأُمور في الصلة التالية.



الصلة الخامسة والثلاثون

فــي إعجاز القرآن ونزوله



إنّ القرآن معجزة خالدة لنبوّة الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) حيث إنّه قد تحدّى بنفسه في مراحل شتّى من الإتيان بمثل هذا الكتاب، والإتيان بعشر سوَر، والإتيان بسورةٍ ـ أي بسورة واحدة ـ، فهو حجّة لمن آمن؛ إذ له أن يحتجّ بأيّة آيةٍ منه، وحُجّةٌ على من لم يؤمن بالتّحدي بإتيان سورةٍ منه، وقد تكلّم رسول الله(صلّى الله عليه وآله وسلّم) بالأحاديث القدسيّة وكذا بالروايات النبويّة، ولم يكن ولا يكون شيء منها شبيهاً بالقرآن ولم يتحدّ بها، بل قال(صلّى الله عليه وآله وسلّم) : «ستكثر عليّ القالة»[1].

فلذا يلزم عرض ما روي عنه(صلّى الله عليه وآله وسلّم) على القرآن كما تقدّم، والإعجاز كالمطر إنّما ينجح في الأرض الطيّبة لا السبخة؛ إذ بعض أوغاد الناس ممّن لا يؤمن بالحقّ ولو أتاه الرسول بكلّ آيةٍ، وذلك لا لشبهةٍ علميّةٍ بل لشهوةٍ عمليّة، كما أفاده قوله سبحانه: ﴿بَلْ يُرِيدُ الإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾[2].

والإعجاز إنّما هو لجهاتٍ شاخصةٍ لا تختصّ بالفصاحة والبلاغة؛ لأنّ قوله سبحانه: ﴿لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْءَانِ

---

١ ـ تفسير الميزان ٥: ٢٧٣.

٢ ـ القيامة: ٧٥/٥.

لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[١] يدعو الفريقين لكلّ عصر ومصر إلى يوم القيامة أن يأتوا بمثله، مع أنّ غير العرب وهم الأكثر لا يعرفون فصاحتهم ولا بلاغتهم.

كما أنّ القول بالصرف غير صائب أيضاً؛ لأنّ بعض جهات القرآن يرجع إلى العلم بالغيب والإخبار عنه، نحو قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾[٢]، ومثل قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ...وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ...وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا...﴾[٣]، ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾[٤]؛ لأنّ هذه الأُمور وما يضاهيها ممّا علّمه الله رسولَه، موضعاً موضعاً، مطلباً مطلباً ممّا لا سبيل لأحدٍ إليها، ولا يمكن لغير الذي يوحي إليه أن يعرفها فضلاً عن أن يبيّنها بلسان عربيّ أو عجميّ فصيح أو غير فصيح، فمن أين يحتمل الصَرف هنا وما يشبهه؟

وأمّا نزول القرآن فقد تقدّم أنّه بالتجلّي لا بالتجافي.

وأنّ كلّ ما في الطبع فهو مسبوق بالمثال، وكلّ ما في المثال فهو مسبوق بالعقل، وكلّ ما في العقل فهو مسبوق بالصقع الربوبي ولدى الله العليم الحكيم.

---

١ ـ الإسراء: ٨٨/١٧.

٢ ـ هود: ٤٩/١١.

٣ ـ القصص: ٤٦/٢٨ ـ ٤٤.

٤ ـ آل عمران: ٤٤/٣.

وأنّ كلّ ما عند؟؟؟ فهو قد نزل من مخازن الغيب: ﴿وَ إِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَآئِنُهُ وَ مَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[1].

وأنّ كلّ موجودٍ له في كلّ عالم حدّ خاصّ ونعت مخصوص، فلا يتوقّع أن يوجد في المخزن الإلهي ما عندنا من الموجود المحدود المنعوت بوصف خاصّ.

وأنّ قوله سبحانه: ﴿...وَ أَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ﴾[2]، ﴿...وَ أَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَ مَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾[3]، وما يشبهه ليس معناه وجود هذه الأشياء بهذه الحدود والنعوت في المخزن الغيبي، فلا النزول بالتجافي ولا النازل متّحد الحدّ والنعت، كما أنّ المخزن الغيبي أيضاً ليس كعالمي الطبع والمثال.

وحيث إنّ الكتاب قد نزل كما نزل الحديد وهو محور الكلام هنا؛ فيلزم الاهتمام بنزوله وبيان منازله وكيفيّة تحدّده بحدّه الخاصّ حَسَب تلك المنازل، واتّصافه بنعته المخصوص على حسبها.

إنّ القرآن الكريم المحدود بأنّه لدى الله، منعوتٌ بعليٍّ حكيم، وهذا الحدّ والنعت حقيقيّ عينيّ شهوديّ، فكما أنّه هناك ليس بعربيّ ولا عبريّ كذلك ليس مفهوماً ولا معنى ذهنيّاً وعلماً حصوليّاً؛ إذ لا مجال هنالك للذهن ولا للمفهوم ولا للعلم الحصولي لبطلان الصور المرتسمة الحصوليّة هنالك، فإذا تنزّل من ذلك الموطن ورقّت حقيقته صاحَبَها مفهومٌ وقارنَه معنى حصوليٌّ، ولا

---

١ ـ الحجر: ٢١/١٥.

٢ ـ الزمر: ٦/٣٩.

٣ ـ الحديد: ٢٥/٥٧.

يصحَبه شيء من الألفاظ والحروف، فإذا تجلّى من ذلك الموضع ورَقَّتْ حقيقته تارةً أُخرى صَحِبَه شَكلٌ، وتلبّس بلباس العربيّة أو العجميّة.

والمُعضِل هنا داءٌ عَياء، قَلَّ من تعرّضَ له أوّلاً، ونَدَر من تَصدّى لإعضاله وحَلّه ثانياً؛ وذلك لأنّ الموجود المجرّد التامّ المخزون عند الله أمر حقيقيّ عينيّ، ونازله المثالي أيضاً أمر عينيّ، ونازله الطبيعي كالأنعام والحديد أمر عينيّ أيضاً، فلا غرو في هذه الأُمور أن يكون العالي حقيقة النازل، والنازل رقيقة العالي.

وأمّا الكتاب فالعالي منه أمر حقيقيّ عينيّ، والنازل منه أمر اعتباريّ وضعيّ؛ إذ اللفظ أمر موضوع بالاعتبار، ودلالته على المعنى وضعيّة لا طبيعيّة، والمفهوم المستفاد منه أمر ذهنيّ لا عينيّ، وإن كان مصداقه الذي ينطبق ذلك المفهوم عليه موجوداً عينيّاً، مع أنّ بعض المصاديق أيضاً وضعيّ لا عينيّ؛ إذ لا وجود لبعض المركّبات الاعتباريّة كالبيع ونحوه من العقود المعنونة في القرآن «في العين».

والذي يمكن أنْ تنحلّ به عقدة هذا المُعضِل هو أنّ النفس الإنسانيّة موجودة حقيقيّة عينيّة، لها علم شهوديّ وعلم حصوليّ، ومجاريها الإدراكيّة والتحريكيّة أُمور حقيقيّة، وإن كان بعضها بالقياس إلى الموجود العينيّ اعتباريّاً.

وإنّ النفس بجميع شؤونها العلميّة والعمليّة مجالي فيض الله ومجاري قضائه وقَدَره، مع تحفّظ اختيارها، والنفس النبويّة المعصومة بحفظ الله تصلح لأن تسير صراطاً مستقيماً للتأليف بين الحقيقة والاعتبار، وتجلّي العلم الشهوديّ إلى العلم الحصوليّ، وتنزّل الحقيقة العينيّة إلى الرقيقة الاعتباريّة الذهنيّة؛ لأنّها أيضاً في

حدّها ونعتها مرحلة من الحقيقة الخارجيّة، ولكنّ عينيّتها إنّما هي في النفس وإن كانت بالقياس إلى الخارج ذهنيّةً، ولا سهم للنفس النبويّة المعصومة إلاّ استماع الوحي ووَعْيه وتعلّمه وتحفّظ ما تلقّاه، وإن كان لها بالقياس إلى من سواها سهم التعليم والتزكية والهداية والإرشاد وما إلى ذلك.

والغَرض أنّ النبيّ(صلّى الله عليه وآله وسلّم) بالقياس إلى كلام الله مستمع واع، وبالنسبة إلى كتابه متعلّم حافظ بلا استهامٍ له في إيجاد شيء من الوحي، وإن كان بالقياس إلى جبرئيل(عليه السلام) مثلاً مُعلّماً ومبدأً لنزوله حسبما تقدّم شرحه.

ويتّضح سرّ كون الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) مستمعاً واعياً ولا غير، ومتلقّياً حافظاً بالقياس إلى الله سبحانه الذي علّمه وأوحىٰ إليه كذلك بعد الالتفات إلى آيات خاصّة، نحو قوله تعالى: ﴿...عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[١]، ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَ مَا تَأَخَّرَ﴾[٢]، ﴿وَ لَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾[٣]، ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ اللَّهُ وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ...﴾[٤] ممّا ظاهره تغاير المتكلّم والمستمع، ولا يمكن حمل ذلك كلّه على حديث النفس الذي يتّحدان فيه، كما أنّه لا يمكن إتّحاد الإنشاء والكشف، فالقول بأنّ القرآن كتاب أنشأه الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) يباين القول

---

١ ـ الإسراء: ٧٩/١٧.

٢ ـ الفتح: ٢/٤٨.

٣ ـ الإسراء: ٧٤/١٧.

٤ ـ محمّد: ١٩/٤٧.

بأنّه كتاب كَشَفه الرسول؛ إذ لو كان القرآن ممّا أنشأه الرسول فلم يكن قبل إنشائه موجوداً، ولو كان مكشوفاً له فكان قبل كشفه موجوداً ـ أي لم ينشئه أوّلاً بل أنشأه الله، وكان قبل كشف الرسول موجوداً وإن كان تقدّمه بالرتبة ثانياً.

وما قاله الشيخ الأكبر ابن عربيّ في خاتمة الفصّ الشيثي: «فأيّ صاحب كشف شاهد صورةً تلقىٰ إليه ما لم يكن عنده من المعارف، وتمنحه ما لم يكن قبل ذلك في يده؛ فتلك الصورة عينه لا غيره، فمن شجرة نفسه جنى ثمرة غَرسِه (علمه) ليس معناه اتّحاد الفاعل والقابل، بل لابدّ من حفظ التعدّد كالاستعداد أو العين الثابتة وما إلى ذلك ممّا يتبيّن به تعدّد المعطي والآخذ».

ويشهد له ما سبق هذا الكلام كلام آخر منه في ذلك الفصّ حيث قال هناك: «وهذا العلم كان علم شيث(عليه السلام) وروحه هو الممدّ لكلّ من يتكلّم في مثل هذا من الأرواح ما عدا روح الخاتم؛ فإنّه لا يأتيه المادّة إلاّ من الله، لا من روحٍ من الأرواح، بل من روحه تكون المادّة لجميع الأرواح، وإن كان لا يعقل من نفسه في زمان تركيب جسده العنصري فهو من حيث حقيقته ورتبته عالم بذلك كلّه بعينه، من حيث ما هو جاهل به من جهة تركيبه العنصري»[1].

والذي يمكن أن يستظهر من كلامه أُمور:

أحدها: أنّ الذي ينكشف لصاحب كشفه فهو كامن في باطنه من الاستعداد أو العين الثابتة، ومن المعلوم أنّ عروج القوّة إلى الفعل أو هبوط ما في العين الثابتة إلى الخارج المشهود فإنّما هو بفاعل مُخرِج أو مُظهِر؛ إذ لا يتّحد الفاعل

١ ـ فصوص الحكم، خاتمة الفصّ الشيثي.

والقابل وإلاّ لما كان دعواه ـ ابن عربيّ ـ في حقّ كتابه: «فإنّي رأيت رسول الله(صلّى الله عليه وآله وسلّم) في مبشّرةٍ أُريتُها في العشر الآخر من محرّم سنة سبع وعشرون وستّمائة بمحروسة دمشق وبيده كتاب، فقال لي: هذا كتاب فصوص الحكم خذه واخرج به إلى الناس ينتفعون به، فقلت: السمع والطاعة للّه ولرسوله وأُولى الأمر منّا كما أمرنا...»[1] مسموعاً حيث إنّه سمع من نفسه وجنى ثمرة غرسه لا من رسول الله(صلّى الله عليه وآله وسلّم).

وثانيها: أنّ الخاتم (الذي ينسبق إلى الذهن من هذا اللقب الشريف هو سيّدنا الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم)) لا يستمدّ من روح شيث(عليه السلام)؛ إذ لا يأتيه المدد إلاّ من الله تعالى لا من روح من الأرواح، بل من روحه يكون المدد لجميع الأرواح، فهو الفائق على شيث فضلاً على غيره من الأنبياء(عليهم السلام).

وثالثها: أنّ الإنسان الكامل الذي يمدّ ما سواه من الأرواح بإذن الله له جهتان:

الأُولى: حيثيّة حقيقته ورتبته؛ فإنّه بهذه الحيثيّة عالم بذلك كلّه.

الثانية: حيثيّة تركيبه العنصري؛ فإنّه بهذه الحيثيّة جاهل، فهو العالم الجاهل الجامع للمتقابلين.

فاتّضح أنّ ما يذهب إليه ابن عربيّ ومن يحذو حذوه هو: أنّ ما يعلمه الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) فإنّما هو بإمداد الله لا من نفسه ولا من غيره، وأنّه(صلّى الله عليه وآله وسلّم) عالم من حقيقته ورتبته، وليست هي إلاّ النبوّة والرسالة، وجاهل من حيث بشريّته.

---

١ ـ مقدّمة الفصوص.

فلا يمكن القول بأنّ معارف القرآن الكريم ونحوه بشريّة إلاّ بعد تحليل الإنسان إلى حيثيّتين كما أفاده القرآن الحكيم؛ لأنّه نادى في غير موضع بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[1].

وليعلم أنّ النحل التي أوحى الله تعالى إليها وكذا النخل التي لم يرد فيها نصّ كالحيّة وكذلك شجر الحنظل لا يستمدّ شيء من ذلك إلاّ بفيض الله ولا يُمدّ شيئاً إلاّ بإذنه، سواء في ذلك شهدها وسمّها، إذ الممكن يتقاضا من مبدأه الفاعل ويقضي ويقتضي في مبدأه القابلي، وليس معنى إيحاء الله إلى النحل تفويض أمر التوليد إليه، بل الله سبحانه يتكفّل في المقام الثالث أي فيضه الدائم على البريّة جميع شؤون النحل كما يتكفّل جميع أُمور الحيّة، ولا ضير في ضرر سمّها.

ونِعْمَ ما قال الحكيم السبزواري(قدّس سرّه):

موتٌ طبيعيٌّ غدا اخترامي قيس إلى كليّة النظام
ما ليس موزوناً لبعض من نغَم ففي نظام الكلّ كلٌّ منتظم[2]

وسيظهر ذلك أكثر بما في الصلة التالية إن شاء الله تعالى.

---

١ ـ الكهف: ١١٠/١٨.

٢ ـ المنظومة للحكيم السبزواري(قدّس سرّه) (الحكمة).

الصلة السادسة والثلاثون

فــي قرب المطلق من المقيّد

إنّ الله سبحانه هويّة مطلقة لا حدّ لها، وما دونه مقيّد محدود، وكلّ مطلق فهو مع المقيّد وإن لم يكن المقيّد معه، وذلك للميز الإحاطي بين الإطلاق والتقييد؛ ولذا ورد: ﴿وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[1]، وورد أيضاً: «كان ولا شيء غيره، نوراً لا ظلام فيه، وصادقاً لا كذب فيه، وعالماً لا جهل فيه، وحيّاً لا موت فيه، وكذلك هو اليوم، وكذلك لا يزال أبداً»[2] بناءً على رجوع القيد الأخير إلى جميع ما تقدّم حتّى قوله:«...ولا شيء غيره».

والحاصل: أنّه لو كان شيء مع الله لم يكن مخلوقاً له وهو محال، وما ورد من دوام الفيض لا ينافيه؛ لأنّ المعيّة ليست من الجانبين؛ لأنّ المحدود ليس مع غير المحدود؛ إذ الإضافة المادّيّة متوافقة الأطراف، ولكنّ المعنويّة على قسمين:

أحدهما: متوافق الأطراف، كقرب الله من وليّه، وقرب وليّه منه.

وثانيهما: متخالف الأطراف، كقرب الله من الكافر وبعده منه.

إنّ مدار تعليم الكتاب والحكمة ومحور التزكية هو القرب؛ إذ الأُصول منه تدور حول كون الله أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، والفروع منه تحوم حول العبادات القربيّة بأن يؤتىٰ بها قربةً إلى الله، فمساعي الفقاهة الدينيّة على تبدّل متخالف الأطراف بمتوافقها؛ ليصير أصحاب الشمال أصحاب اليمين أوّلاً، ويصيروا مقرّبين ثانياً، ولا اهتمام للشريعة إلاّ لتقريب الناس إلى مولاهم القريب منه، وإن

---

١ ـ الحديد: ۴/۵۷.

٢ ـ التوحيد: ۱۴۰، ح ۵.

اهتمّ بعضهم؛ لتبعيدهم عنه أُولئك ينادون من مكان بعيد، مع أنّ الله قريب منهم.

وحيث إنّ العبادة سير على الصراط المستقيم الممدود بين العابد والمعبود، وأنّ كلّ عابد يتوجّه إلى الله سبحانه باسم من أسمائه الحسنى، وأسمائه متفاوتة، فبعضهم يعبدونه خوفاً، وبعضهم شوقاً، وبعضهم حبّاً وشكراً، وعلى أيّ تقدير يكون الصراط أمراً حقيقيّاً لا اعتبارياً، ومتّصلاً لا منفصلاً، وذا مراتب لا متبايناً، وتحقيقه على الصدور في الحكمة المتعالية، وعلى الظهور في العرفان، وليس المقام من ذلك رأساً؛ فلذا يرجع البحث عنه إلى موطنه المناسب له.

والغرض هنا هو بيان أنّ مدار الدين على القرب لا البعد، ولكنّ عالماً بأنّ الإنسان سيّما الحكيم والعارف منه محتاج إلى من يدبّره ويربّه، وأنّ مدار التعليم على أنّ كلّ نعمة فمن الله لاستحالة الخروج من القوّة إلى الفعل، أو البروز من الباطن إلى الظاهر إلاّ بتأثير الله تعالى، ولا يتفاوت في ذلك بين الكتاب التدويني والتكويني، فكما أنّ إيجاد القرآن وإعجازه لا يكون إلاّ بالله فكذلك إيجاد الرسول الأمّي(صلّى الله عليه وآله وسلّم) وإيحاء الوحي إليه وجعله نبيّاً رسولاً فائقاً على جميع العالمين ورحمةً لهم لا يمكن إلاّ بالله تعالى.

وحيث إنّ كلّ واحد من الكتابين متقاربين والقرب الوجودي لكلّ منهما من الله سبحانه على وزان واحد، فلا يمكن أن يؤتىٰ القرآن إلاّ من هو على حدّ الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) ؛ إذ لو لم يبلغ من يؤتىٰ القرآن حدّه(صلّى الله عليه وآله وسلّم) كيف يفهم هو نفسه القرآن حتّى يكون مبيّناً له؟

فأيّ شخص أراد الله أن يؤتيه القرآن لابدّ أن يعلّمه الكتاب والحكمة أوّلاً، ويعلّمه ما لم يكن يعلمه ثانياً، حتّى يصل إلى حدّ ما يؤتاه ثالثاً.

فتحصّل أنّ إعجاز القرآن المعجز لجهات شتّى:

منها: احتوائه على الغيب الذي لا يطّلع عليه أحد كخلق آدم وزوجته، وإسكانهما الجنّة وخروجهما منها، وتعليم الأسماء، ثمّ إنبائها الملائكة، وكجريان الأنبياء والمرسلين ومعجزاتهم، وما إلى ذلك ممّا يرجع بعضها إلى ما قبل التاريخ.

وأنّ الله لو أراد أن يؤتيه حكيماً كما كان لو أراد أن يؤتيه أُمّياً بلا ميز في الثبوت أصلاً؛ لأنّ القرآن الكريم بنفسه معجز، نعم في مقام الإثبات أمكن أن يرتاب المبطل.

وأنّ أوّل من فتح باب التعقّل والتدبّر بالترغيب إليه وبإرائة المطالب المعقولة البرهانيّة وبنقل الحجج العقليّة الدارجة بين الأنبياء ومخالفيهم هو القرآن الكريم.

وأنّ أهل بيت العصمة والطاهرة الذين هم الثقل الأصغر والعِدْل للثقل الأكبر حسبما قال رسول الله(صلّى الله عليه وآله وسلّم) : «إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي»[1]، قد أحيوا ما أحيى القرآن من الاجتهاد العقليّ بالخطب والخطابات وبالاحتجاج والترغيب إلى التعقّل وتربية الجهابذة والفطاحل في الحكمة والكلام، وقد اتّبع غير واحد من أهل السنّة ـ كالمعتزلة ـ بهم وإن لم يستنّوا بسنّتهم كاملاً.

ولا يخفى على الباحث اللبيب ما ورّثه العترة من حضّ المسلمين على الاجتهاد المعقول المقبول، حيث قالوا(عليهم السلام): «علينا إلقاء الأُصول، وعليكم التفريع»[2].

فالعقل البرهاني كالنقل المعتبر كلاهما تحت إشراف الوحي المعصوم وسيطرته، ولا يقابله شيء منهما؛ لأنّ العلم الحصوليّ الذهنيّ القابل للخطأ لا يقابل إلاّ نظيره لا مثل العلم الحضوريّ العينيّ المعصوم عنه؛ فالدليل العقلي في قبال الدليل النقلي لا في تجاه الوحي المعصوم القطعي.

---

١ ـ كمال الدين: ٢٣٤، ح ٤٤.

٢ ـ وسائل الشيعة ٢٧: ٦٢، ح ٣٣٢٠٢.

وحيث إنّ الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) لم يكن يدري من قبل نفسه أنّه ما الكتاب ولا الإيمان فليس له أن يكشف معارف القرآن إلاّ أن تنكشف له بكشف الله، فالله أنشأه وكشفه للرسول، فانكشف له.

ولا يتوهّم جواز إسناد إيجاد القرآن إلى الرسول كإسناد التوفّى إلى ملك الموت تارة، وإلى الملائكة أُخرى؛ لأنّ كلّ ذلك بالتسبيب؛ لأنّ المتوفّى الحقيقي هو الله الذي قال في ملك الموت: ﴿الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾[1]، وقال في حقّ الملائكة: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾[2]؛ لدلالة كلّ واحد من هذين العنوانين أنّ توفّى غير الله بالتسبيب، هذا في غير الإعجاز.

وأمّا في المعجزة فحقيقتها: أنّها خارجة عن طاقة البشر بما هو بشر، فإسنادها إلى الرسول من باب الولاية، ومعلوم أنّ الله الذي يتولّى الصالحين هو المتولّي للإعجاز لا المُولّى عليه، وإلاّ لم يكن ذلك من باب الولاية التي هي سيطرة الوليّ على من تحت ولايته.

فاتّضح أنّ وزان جبرئيل(عليه السلام) ونحوه بالقياس إلى الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) وزان بعض مراتبه؛ لأنّه(صلّى الله عليه وآله وسلّم) الكون الجامع المظهر للاسم الأعظم، وأنّ الرسول تحت ولاية الله تعالى، وأنّ القرآن بجميع شؤونه بإنشاء الله أوّلاً، وكشفه بالتعليم ثانياً، وإنكشافه للرسول المعلّم لمن سواه ثالثاً.

---

١ ـ السجدة: ١١/٣٢.

٢ ـ الأنعام: ٦١/٦.

خاتمة

فيها إشارة إلى نَضْد الصلات وتداخلها



إنّ رسالة الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) وكونـه خاتمـاً، وإنّ كون القرآن الكريم كلام الله تعالى وكتابه، وإنّ كون الرسول تلقّـاه مـن لـدن عليم حكيم من غير أيّ دخل له فـي إنـشائه، وأنّـه(صـلّى الله عليـه وآلـه وسلّم) علم جميع ما فـي هذا الحبل المتين بتعليم الله وعلّمه ما سواه ونحوهـا من المعارف ممّا أفاده الثقلان من المحكمات، وإنّ المتـشابهات تعتَورهـا فـي مرتبة اللسان العربـيّ لا فـي مرتبة العليّ الحكيم، وإنّ بعض الناس يتّبعونهـا فـي كلّ عصرٍ ومصرٍ، ولا غَـرْو فـي ذلـك؛ لأنّـه يـدوم بـدوام المحكمـات، والباحث الدقيق يشاهد نَضد بعض الصلات وتداخل بعـضها الآخـر، وذلـك لأنّ الشبهات التـي ابتلى العصر بها لم تكن منضودةً، والفرصة لم تكن مُتاحـةً فسيحةً، ولكنّ كلّ ما رُقِم كان مشفوعاً بالعقل البرهانـي أو النقـل المعتـبر، فعلى المحقّق الخبير المتضلّع أن يعرف المحكمات أوّلاً، والمتشابهات ثانيـاً، وأن يعلم كيفيّة إرجاعها إلى المحكمات ثالثاً، وأن يجعل كلّ ذلك خالصاً لوجـه الله لهلاك كلّ شيء سواه رابعاً.

وخاتمة دعوى أهل الجنّة وفاتحة كلام الله الذي تلقّاه رسول الله(صلّى الله عليه وآله وسلّم) هي المحمدة: «الحمد للّه ربّ العالمين».

حرّره بيمناه الداثرة «عبدالله الجواديّ الطبريّ الآمليّ».

قم المقدّسة: ٢٩ / جمادى الأولى / ١۴٢٩، المصادف: ١۵ / خرداد / ١٣٨٧.